الإسلام والمستشرقون

دكتور: عبد الجليل شلبي

مطبوعات الشعب
ثقافة وعلوم إنسانية لكل الشعب

الإسلام والمستشرقون

دكتور: عبد الجليل شلبي

مقـــــدمة

تتابع هيئة اليونسكو اصدار موسوعة شاملة عن تاريخ الجنس البشرى وتطـوره الثقافى والعلمى وقــــد أسمتها

History of Mankind Cultural and Scientific Development

وصدر من هذه الموسوعة بضـعة أجزاء ، والأجزاء الثلاثة الأولى التى رأيتها تتحدث عن الحضارات الكبرى فى العصر الوسيط ، وفى الفصل العاشر من الجزء الثالث حديث موجز عن العرب والاسلام ، وقد خبط فيه كاتبه أو كتابه خبطا بدا لى أنهم اعتمدوا فيه على كتابات المستشرق المجرى الهولندى اليهودى جولد زيهر ، للتشابه القوى بين الكتابين ، أو على الأصح للتكرار لآرائه ، وزيهر له عدة كتب ومحاضرات لم يدخر فيها وسعا فى طعن الاسلام والافتراء عليه ، ولا يجاريه فى هذا الا المستشرق الانجليزى الملحد الفريد جيوم ، الذى صهر فى بوتقة يهودية .

وكتاب « هذا الجزء من موسوعة اليونسكو أربعة تضامنوا فيما كتبوا (١) .

وقد أثارت كتابتهم حفيظـــة المسلمين على مؤسسة اليونسكو ، والمهم فيها من مجافاة للحقائق التاريخية وتهجم على بنى الاسلام ، وكتب الكثيرون احتجاجات عـلى هــذه الاساءات التى ليست الا وحيا لتقاليد موروثة وامتـــدادا

(١) كتاب هذا الجزء هم جاستون فيت Gaston Wiet
فاديم اليسيف Vadime Elesseef وفيليب ولف Phillipe Wolff
وجون نودو Jean Naudou وهو مترجم عن الفرنسية الى الانجليزية

للروح الصليبى ، وهو عمل كان ينبغى ان تتنزه عنه هـذه المؤسسة الكبيرة .

وقد بعث السيد نائب رئيس الوزراء محمد حسن التهامى الأمين العام للمؤتمر الاسلامى، الى مكتب الاستاذ الأكبر شيخ الأزهر يخبره بهذا ، ويطلب كتابة تصحيح ورد لهذه المفتريات وعهد مكتب الامام الى الاستاذ عبد العزيز عبد الحق الأمين العام المساعد السابق لمجمع البحوث الاسلامية، فترجم هذا الفصل الى اللغة العربية ، وذيله بتعليمات موجزة ، ثم سلمنا هذه الترجمة لبعض الاساتذة المشتغلين بدرس الفقه الاسلامى وتاريخ التشريع من كليات الحقوق والشريعة والقانون ، فى جامعات الأزهر والقاهرة ، ورجونا أن يتفضل أى منهم أو هم جميعا بكتابة هذا التصحيح ، ولكن مضت الأيام ولم يصلنا شىء من أى منهم ، وكان هذا مؤسفا حقا ، سواء كان ذلك استهانة بكتابة المستشرقين عن الاسلام ، أو اكبارا لهيئـة اليونسكو ، فكلا الأمرين لا يليق .

وأخيرا استخرت الله تعالى وكتبت هذه السطور ، وقـد خصصت فصلا منها للرد على جولد زيهر نظرا لكثرة تداول كتبه وتأثيرها ، وأيضا لماذكرت من تأثر كتاب اليونسكو به . والحديث موجز كل الايجاز نظرا لأنه موجز فى الأصل ، ثم كتبت كلمة عابرة عن الرقيق فى عصر الاسلام والرقيق فى العصر الحديث على أيدى المستعمرين الأوروبيين فى أمريكا وأفريقية .

فاذا استطاع السيد التهامى ان يقنع هيئة اليونسـكو بتغيير رأيها ومنهجها بما تقدم لها من حقائق الاسـلام ، فقد صحح لها خطأ يؤخذ عليها فى شتى الأماكن والمراكز العلمية، وان هى اصرت على ما كتبت فحسبنا اننا حاولنا ابطال باطل

واحقاق حق ، ولكن فى محيط محدود ، فكتب اليونسكو تترجم الى لغات عديدة وتقرأ فى أنحاء العالم كله ، وأظن أن الذى أقعد الذين طلبنا منهم الكتابة فى هذا الموضوع عن الاستجابة لما طلبنا هو يأسهم من عدول اليونسكو عن آرائها، وأن مستشرقين كثيرين طعنوا الاسلام جهلا بتاريخه وباللغة العربية ، فاذا أضيفت كتابة اليونسكو الى ما كتبوا فما هى الا نغمة مكررة وحديث معاد .

وقد كنت أود أن تكون هذه السطور فى يد الناس منذ زمن بعيد ولكن أجل ظهورها ما ذكرت من العهد بها الى آخرين هم أقدر منى فى هذا المجال .

وأسأل الله تعالى أن يتقبله منى وأن يثيبنى عليه رغم صغره وضآلته فانه من يعمل مثقال ذرة خيرا يره .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد النبى الأمى الذى أرسله الله تعالى هاديا للناس جميعا ، وسراجا منيرا لحياتهم وعقولهم ومناهج تفكيرهم .

عبد الجليل عبده شلبى

مهد الاســـلام

يجدر بنا قبل ان نتحدث عن نبى الاسلام وعن رسالته ان نلم المامة عاجلة بالوطن الذى ولد فيه ، ومنه انبعث صوت الاسلام ، فهذه الالمامة ترينا الى أى مدى كانت هذه البقعة صالحة لمثل هــذه التعاليم الاسلامية ، والى أى مدى تأثرت أو كانت عرضة للتأثر بالأفكار المجاورة لها .

وقد وقعت الجزيرة العربية بين أقدم وأعرق حضارتين عرفهما التاريخ وهما الحضارة المصرية القديمة وحضارة الرافدين فى العراق وقد اتصل المصريون بأرض بابل وتركوا هناك آثارا حضارية ، كما امتد الغزو الآشورى الى مصر ، ولكن لم تتوغل أى من الدولتين فى داخل الجزيرة العربية .

ولكى نحدد بالدقة مناطق الجزيرة التى كانت مفتوحة للغزو الأجنبى والأخرى التى كانت مغلقة ، نقسم الجزيرة الى أقسام ثلاثة .

(أ) القسم الجنوبى — وهو اليمن .

(ب) القسم الشمالى ، ويشمل صحراء الشام والبلاد الشمالية حتى فلسطين .

(ج) القسم الوسط وهو نجد ، وهو الجزء الواقع بين الطرفين السابقين .

وكلا الطرفين الجنوبي والشمالى كان من السهل أن يتصل بالحضارات التى كانت قريبة منه ، وأكثر ما أطلق الكتاب القدامى كلمة العرب كانوا يريدون بها سكان هذه الجهات .

اتصلت اليمن بالحبشة وبالعراق وبالهند وبشمال الجزيرة الذى كان يقع على الطريق الذى يربط بين سوريا وما وراءها من بلاد الهلال الخصيب . وهو أقدم طريق عرفه الفاتحون والتجار . أما القسم الأوسط فكان من الصعب أن تنتهى اليه لمعات من الحضارات والثقافات التى ازدهرت على جانبيه سواء فى سقى الفرات أو على ضفاف النيل وكان الفاتحون يتحاشونه نظرا للاخطار والمخاوف التى تحف به وأيضا لقلة ما به من المغريات التى تدعو الى غزوه . ومشهد أمر الحملة الرومانية التى أخطأت طريقها الى اليمن سنة ٢٤ ق.م. وما لاقته فى وسط الجزيرة من متاعب وخسائر . وقد وصف مؤرخها « استرابون » ما نالها من مشقات وخسائر ثم رجعت عن طريق البحر الأحمر فاستغرقت عودتها عامين تقريبا .

وهذا التقسيم لا يختلف كثيرا عن تقسيم الكتاب الكلاسيكيين من الرومان والأغريق ، فقد قسموا بلاد العرب الى أقسام ثلاثة أيضا :

أولها بلاد العرب السعيدة Arabia Felix وهى بلاد اليمن ، وهى سعيدة لخصوبة أرضها ووفرة خيراتها ، وقد ازدهرت بها حضارات المعينين والسبئيين ، وظلت تنعم بثراء وحضارة حتى تهدم سد مأرب وتفرق اليمنيون فى أنحاء الجزيرة ، وكان منهم الغسانيون فى الشمال ، والمناذرة فى الشرق ، والأوس والخزرج فى الوسط بجوار يثرب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ومهاجره .

وثانى أقسامهم هو بلاد العرب الصحراوية Arabia Petrea وهذه عندهم كانت تشمل سيناء وبلاد النبط التى تقع شرق وجنوب فلسطين وشرق الأردن ، وكانت عاصمتها مدينة البتراء

Petea . وهم فى هذا القسم قد توسعوا قليلا عن القسم الثانى الذى ذكرنا .

أما ثالث هذه الأقسام فهو بلاد العرب الصحراوية Arabea Deserta . ولم تحدد هذه البلاد تحديدا واضحا ، ولكن يبدو انهم اغضوا عن وسط الجزيرة الذى يسمى نجدا . ولعل ذلك لقلة معلوماتهم عنه ، أو عدم أهميته فى نظرهم ، أو لعدم اتصالهم به .

ولم يكن العرب فى هذه الأطراف منعزلين عن جيرانهم ، وجاء فى كتب المؤرخين القدامى أن المصريين عرفوهم منذ الأسرة الأولى اذ كان لهم اتصال بسكان سيناء . كذلك عرف السومريون والأكاديون هذه البلاد منذ أربعة آلاف عام (ق.م) ولكن هذا لا يعنى الا سكان سوريا وسيناء وما كان قريبا منهما من بلاد العرب الصخرية والصحراوية .

وكلمة عرب كلمة سامية تعنى أعراب وبدو (١) . واستعملت الكلمة فى العهد القديم فى غير موضع (٢) .

وعرب نجد لم يكونوا فى عزلة تامة عن جيرانهم أيضا ، ولكن صلتهم بجيرانهم سواء كانوا فى الجنوب أو فى الشمال أو فى الشرق كانت صلة محدودة لا تؤهلهم للاستفادة من ثقافتهم وحضارتهم ، ولهذا ظلت هذه البقعة فى تأخر حضارى ، بينما كانت فى أطراف الجزيرة حضارات مزدهرة راقية ، ولو أن هؤلاء اتصلوا بهذه الحضارة لتغيرت حياتهم وبدا عليها شىء من الرقى ، غير أن بيئتهم الصحراوية قضت عليهم بهذا التخلف .

---

(١) انظر حتى ص ٤٩ ترجمة مبروك نافع .

(٢) انظر أخبار الايام الثانى ١٦/٢١ والمكابين الثانى ١٢/١٠ — وراجع فهرس الكتاب المقدس .

وقبيل البعثة النبوية قامت فى وسط الجزيرة نهضة محلية أكسبت المدن الكبيرة وعلى الأخص مكة لونا من الحضارة ، وكان أهل مكة من قبل ذوى استقرار ، ولكن كانت نهضتهم تقوم على تهذيب اللغة والتهدى الى قوانين اجتماعية أرقى مما كان العرب عليه من قبل ، مثل القضاء على السرقات والنهب ، وتأمين قوافل التجارة وتقسمت قريش فيما بينها وظائف خدمة الحجاج وعمارة المسجد الحرام ، ودفع الديات والمغارم ، ثم أنشأوا حلفا سموه « حلف الفضول » تعاهدوا فيه على نصرة كل مظلوم بمكة ، وكف الأقوياء أن يبغوا على المستضعفين . وقد شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحلف فى صباه ، وقال ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت اليه فى الاسلام لأجبت (١) .

---

(١) أنظر السيرة ج ١ « ١٤٤ ـ ٤٦ » . وفيه أن الوليد بن عتبة بن أبى سفيان حين كان واليا على المدينة من قبل عمه معاوية . ظلم الحسين بن على (ض) حقا فقال له الحسين : لتنصفنى أو لآخذن سيفى ثم لأقومن فى المسجد فأدعو لحلف الفضول فقال عبد الله بن الزبير : وانا أحلف لئن دعا به لآخذن سيفى حتى ينصف حقه أو نموت جميعا ، فبلغت آخرين فقالوا مثله ، فخاف الوليد وأنصفه ـ وانظر الاغانى جـ ١٧ ص ٢٩٥ .

الديانات السائدة قبل الاسلام

• الوثنيـــة :

كانت الوثنية اكثر الديانات تفشيا فى جزيرة العرب ، خصوصا أواسطها التى كادت تخلو من أى عبادة أخرى . وكان لدى كل قبيلة صنم تعبده وتخضع له وتستشيره فى شئونها الهامة ، فلا تقدم على حرب أو تتهيأ لسفر حتى تستتشـــير الهها ، فتجيل أزلامها أمامه ، فاذا لم يرض عما يريدون من الأعمـــال تركوه ، وكانوا يصطحبون الأصنام معهم فى أسفارهم . وكانت الكعبـــة مليئة بالأصنام فى داخلها ويقوم عدد منها حولها وكان صنم قريش المفضل هو هبل ، وكان مصنوعا من العقيق على صورة انســـان وكان بداخل الكعبة ، ويأتيه الحجاج من الأماكن البعيدة ، وقـــد كسرت احدى ذراعيه فصنعت له قريش أخرى من الذهب .

ويقال ان عمرو بن لحى ــ وكان يعاصر العماليق « شاسو » Shasso ــ خرج اليهم فى مؤاب من أرض البلقاء ، فوجـــدهم يعبدون الأصنام ، وقالوا له : نستمطرها فتمرطنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، وأعطوه « هبل » هذا ، فقدم به الى مكة ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه (١) .

وعندما فتح المسلمون مكة حطموا الأصنام بما فيها هبل ، وكان مرسوما على جدار الكعبة من داخلها صورة لابراهيم الخليل وبيده أزلام يستقسم بها فمحيت أيضا .

---

(١) نفسه ص ٨٢ ــ وقبل أول عبارة الاوثان انهم كانوا يحملون معهم فى سفرهم حجارة من الحرم ، فاذا نزلوا نصبوا الحجر وطافوا به . ثم عبدوا الحجـــارة الاخـــرى .

وكان وثن ثقيف هو اللات ، ويبدو أنه أنثى « الله » وكان على صورة أنثى ، وكانت ثقيف تزينها بالذهب والحلى الكثيرة ، وعندما قدم وفد ثقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة تسع من الهجرة طلبوا منه أن يعفيهم من كسر أصنامهم بأيديهم ، وكانت لهم أصنام أخرى أقل من اللات شأنا ، ويظر أنهم كانوا يخشـون ثورة السفهاء منهم ، أو كانوا لا يزالون يخشون بطش آلهتهم حتى بعد قبول الاسلام ، وقد استجاب لهم رسول الله صلى الله عليـه وسلم فأعفاهم وأرسل من يكسر أصنامهم ، ولكنهم طلبوا أن يبقى على اللات ثلاث سنين فلم يقبل ، ثم أرسل أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبه لهدم اللات ، فكسرت وجردت من زينتها وكانت من الذهب والجزع (١) .

ومن أوثانهم الشهيرة « العزى » ، أنثى الأعز ، وكانت بنخلة بين الطائف ومكة ، وكان يقوم على رعايتها بنو شيبان .

وهكذا كانت الأصنام الكبيرة مخشية معظمة .

وكان لقريش بجانب الكعبة وبداخلهـــا طواغيت تحج اليها وتقدم لها الهدايا ، وتطوف حولها ، ولكنها كانت ترى الكعبة أعلى منها مكانة لأنها من بناء ابراهيم أبى الأنبياء ، وكانت بيتا محجوجا من العرب جميعا .

هذه الوثنية التى ناصبها الاسلام العداء أكثر من عشرين عاما حتى قضى عليها ترينا الى أى مدى كانت العقلية العربية متخلفة ، وأى مجهود بذله الاسلام لانارتها وترقيتها .

وكان القوم — مع عبادتهم هذه الأوثان وتعظيمها — يرونهـا وسائط بينهم وبين الله تعالى . وقالوا ((**ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى (٢)**)) .

---

(١) ابن هشام ج ١٩٦/٤ وما بعدها . والجزع . الخرز اليمانى

(٢) سورة الزمر ٣/٣٩ .

وكانت هناك أوثان أخرى كثيرة جدا خصص لها ابن الكلبى كتيبا سماه الأصنام ، ولم يستوعبها جميعا ، وهذا يبين مدى فشو هذه العبادة الوثنية بين هؤلاء القوم ، وبينما عرف شمال الجزيرة وجنوبها أديانا أخرى من اليهودية والمسيحية والوثنية ظل هؤلاء على وثنيتهم حتى ظهور الاسلام .

● **اليهودية :**

تسللت اليهودية الى الجزيرة العربية فى ظروف غامضة ، ويبدو انه بعد أن حطم تيطس الهيكل سنة ٧٠م ، وشتت اليهود من فلسطين انتقل بعض منهم الى الجزيرة العربية ، وقد حطم الهيكل قبل ذلك مرتين بأيدى الرومان ، لكن تيطس كان قد أقسم الا يبقى بفلسطين يهوديا ، ولهذا شتتهم . فانساحوا فى بلاد عديدة، والجزيرة أقرب البلاد اليهم . وقد عاشوا فى جنوب الجزيرة واعتنق ديانتهم اليهودية عرب من الجنوب ، فلما ظهرت المسيحية قام بين الديانتين عداء مرير ، وكاد ذو نواس ــ آخر ملوك الحميريين ــ من ذوى التعصب الشديد ضد المسيحية ، واليه تنسب مذبحة تاريخية فى نجران ، ويقال انه أحرق المسيحيين ، وانه هو الذى وردت الاشارة اليه فى الآية الرابعة وما بعدها من سورة البروج : وفيها « **قتل اصحاب الأخدود النار ذات الوقود اذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود** (١) » وقد أوقع أبرهة بهذا الطاغية فى سنة ٥٢٥ م فالقى بنفسه فى البحر (٢)

وربما نزح بعض اليهود الى الشمال بعد انتصار المسيحية . وعندما تهدم سد مأرب وتفرق اليمنيون فى أنحاء الجزيرة ،

---

(١) سورة البروج ٨٥ آيات ٤ ــ وما بعدها .

(٢) أنظر مجملا لهذا التاريخ فى كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام لجورجى زيدان ص ١٢٠ وما بعدها ، وقارن فيليب حتى ج ١/٧٥ . وانظر فجر الاسلام ص ٢٩ ، ص ٣٢ .

وجدوا اليهود قد سبقوهم الى الواحات الخصبة فى يثرب وخيبر وغيرهما .

وانتقلوا بعد ظهور الاسلام الى تيماء وفدك ، وكان حول المدينة منهم بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع .

وكان تأثيرهم فى الشمال محدوداً ، لأن الديانة اليهودية ديانة أمة معينة ، وليست ديانة مبشرة ، وكان اليهود يتعالون على الوثنيين ، ولم يكن يعنيهم أن يعلموا مبادىء دينهم ، وكان لهم نشاط تجارى ، واشتغلوا بصناعات كان العرب يحتقرونها كالصباغة ــ والحدادة وصنع الأسلحة . وكان لهم مزارع وبساتين أيضا ، ولم تكن صلتهم بالعرب صلة حسنة ، وكانوا يخبرون العرب أن نبيا سيظهر يحطم أصنامهم ويدعو لعبادة الاله الواحد الخالق ، واليهود يؤمنون بالمخلص الموعود ، ومنهم من لا يزال يترقب ظهوره الى الآن .

وقد أذكوا فى يثرب نار الخلاف والفرقة بين الأوس والخزرج ، واستفادوا من حروبهم الطويلة ، ولكنهم هيأوا أذهانهم لقبول دعوة التوحيد ، مما جعلهم يدعون محمدا صلى الله عليه وسلم للهجرة اليهم ، اذ كان اليهود يتحدثون عن ظهور نبى من العرب يدعو للتوحيد .

وبعد زوال مملكة داود وهدم الهيكل اشتد ايمانهم به وترقبهم له (١) .

● النصرانية :

تسربت النصرانية الى الجزيرة العربية من الشمال ومن الجنوب جميعا ، ولكن لم يتح لها أن تتوغل فى داخل الجزيرة .

---

(١) راجع فى هذا فصلا بعنوان المسيح فى كتاب « عبقرية المسيح » [illegible]

تسربت من الشمال عن طريق فلسطين ، ولكن لم تكن هناك حركة منظمة تدفعها الى باطن الجزيرة ، وكان تجار مكة ، فى طريقهم الى سوريا بمتاجرهم - يمرون بأديرة الرهبان على تخوم الصحراء فى شمال الجزيرة ، ولكن لم يعنهم درس المسيحية ولا اعتناقها ، لأنهم كانوا يعتزون بديانتهم ، ولهذا قاوموا الاسلام عندما دعا اليه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم هم حاربوا المسيحية الوافدة من الجنوب . على أن هناك عاملين حالا دون امتداد المسيحية من الشمال ، أولهما ما فى المسيحية من تعقيد وما بين فرقها من اختلافات فى ذات المسيح ، وذلك لا يسهل فهمه على العقل الساذج فهى فلسفة لا يقوى على هضمها الكثيرون ، وقد امتد الاسلام الى الهند وما وراء الهند وفى جرز المحيط الهندى والمحيط الهادى بسبب العلاقات التجارية لأنه دين سهل بسيط ، وتخلى سكان هذه البلاد عن دياناتهم ومنها المسيحية ولم تستطع المسيحية أن تجد لها مكانا فى أذهان التجار العرب .

وثانى الأمرين اللذين حالا دون امتداد المسيحية فى جزيرة العرب أن التجار الذين كانوا يرحلون الى الشمال كانوا من مكة ومن قريش ، وكان دخول أى دين جديد يهدد مكانتهم الاجتماعية ، ولهذا آثروا وثنيتهم .

أما من الجنوب فقد وفدت من الحبشة وأيضا من سوريا (١) وكان وفودها من الجنوب حركة منظمة أدت اليها دوافع سياسية من أثر التسابق بين الفرس والرومان على هذه المنطقة ، ووصلت أول ارسالية رومانية سنة ٣٥٦ م .

---

(١) يقال ان أول من وفد بها من سوريا عابد يسمى فيمون ، وله أقاصيص أدنى الى الخيال ، أنظر سيرة ابن هشام ١/١٩ وما بعدها ، والطبرى ١/٩١٩ ، ط دى جوى ، وكما لاحظنا من قبل لم تكن نجد تغرى بالغزو العسكرى ولا الفكرى ، ثم كانت الصحراء فى الشمال مما يحول دون التوغل فى الجزيرة .

ومنذ سنة ٥٠٠م صارت مدينة نجران مركزا للمسيحية ، وكانت تتبع المذهب المونوفستي ـ القائل بالطبيعة الواحدة ـ وفي سنة ٥٢٥ م دخلها الأحباش وظلوا بها نحو خمسين عاما فأنشأوا لهم كاتدرائية كبيرة فى صنعاء .

وكان من نشاطهم أنهم أرادوا تنصير الجزيرة العربية كلها ، وارادوا صرف العرب عن الاتجاه الى الكعبة فى مكة ، وان يتجهوا بدلا من ذلك الى صنعاء ورأوا أن ذلك لا يتم الا بهدم الكعبة التى بمكة ، وأعد ابرهة لهدمها حملة استخدم فيها الفيلة بدلا من الابل والخيل ، فأرهب العرب حقا ، ولكن الحملة باءت بالفشل اذ تفشى فى جيش ابرهة مرض جلدى أعجزه عن عمل أى شىء فرجع ، وقد جاء ذكرها فى القرآن فى سورة الفيل (١) .

وكانت بداية هذا الغزو أن أحد الأذواء اليمنيين استطاع أن يفلت من ذى نواس ، وكان نيره قد ثقل على أعناق اليمنيين ، فالتجأ الى جستين الأول ، وكان قد أعلن نفسه حامى المسيحية اذ ذاك ، وعز عليه أن تضام المسيحية من جهة ، ووجد فى هذا الالتجاء وسيلة لغزو اليمن السعيد من جهة أخرى ، فكتب الى امبراطور الحبشة ـ وكانت مسيحية رومانية ـ فأرسل ٧٠٫٠٠٠ محارب تحت قيادة ارياط فانتصر على ذى نواس ، ثم تولى ابرهه القيادة فقضى عليه نهائيا ، وبموته انتهى حكم الحميريين ، وانتهى عقد استقلال اليمن ، وابرهه هو الذى أنشأ الكنيسة التى ذكرنا ، وسماها العرب القليس ـ من الكلمة اليونانية Eklesia بمعنى كنيسة .

ولم ينته عهد الأحباش الا سنة ٥٧٥ م !

وكانت المسيحية قبل أن تصل الى الجزيرة قد انقسمت وتعددت

---

(١) السورة رقم ١٠٥ ، وسميت بسورة الفيل لأنه الحيوان الذى أرهب قريشا والعرب .

فرقها ، واختلفت قرارات مجامعها ، وبينما كان الغسانيون فى الشمال نسطوريين كان المناذرة فى الحيرة يعاقبه ، وكانت كل فرقة تضارب الأخرى ، وهذا مما جعل المسيحية معقدة أمام العرب السذج فى اليمن .

وكان التبشر المسيحى ــ على عكس اليهودية ــ نشيطا ، فكان القسس فى الجنوب يغشون الأسواق يعلمون المسيحية ويدعون لها ، ولكنها لم تستطع النفاذ الى وسط الجزيرة ، وكان فى الطائف بعض النصارى تسربت النصرانية اليهم من العراق ، وكان أمية ابن أبى الصلت الشاعر نصرانيا ، وجاء فى شعره ذكر الجنة والنار وقصص الأنبياء ، وكان يتوقع أن يكون هو نبى العرب المنتظر ، ولما عرض شعره على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : آمن شعره وكفر قلبه .

وبعد هجرة النبى محمد صلى الله عليه وسلم الى المدينة قدم وفد من نصارى نجران لمناظرته ، وقد دعاهم الى المباهلة ، واستنزال اللعنة على الكاذب منهم ، ولكنهم نكصوا وانصرفوا ولم يباهلوه ، وجاء ذكر هذا الحادث فى سورة آل عمران (١) .

من هذا نرى ان تأثير النصرانية فى داخل الجزيرة كان ضيقا محدودا ، وانها وجدت فى الجنوب لأسباب سياسية لم تكن تدعو الى غزو نجد ، ثم أن فشل حملة ابرهة حد من هذا الغلو والعمل على تنصير السكان فى الوسط .

● ديانات اخرى :

كانت هناك ديانات أخرى أقل اهمية من الديانات التى ذكرنا ، وقد جاء ذكرها فى القرآن الكريم .

من ذلك المجوسية وهى عبادة الكواكب ، وجاء فى القرآن :

---

(١) الآيات ٦١ ــ ٦٣ .

(لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن) (١) .
والمجوسية كانت شائعة فى فارس ، ومن المجوس عباد النار ، وكان سلمان الفارسى فى صباه مجوسيا .

وكان هنـــاك الصابئة ومن يقولون ان الملائكة بنات الله ، ومن يعبدون الجن . وقد جادل القرآن هؤلاء جميعا وأبطل مزاعمهم ، وجاء فيه : ((**ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شىء شهيد (٢)**)) وجاء فيه : ((**ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون (٣) .**

● الحنفـــاء :

كان هناك أفراد أنفوا من عبادة الأصنام ، ولم يعتنقوا اليهودية ولا النصرانية ، وانما كانوا حنفاء على دين ابراهيم عليه السلام ، وكانت عقيدتهم تقوم على الايمان بالله ، وعبادتهم هى التأمل فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ومن هؤلاء ورقة بن نوفل الزهرى ، وهو ابن عم السيدة خديجة زوجة رسول الله ، وهو الذى ذهبت اليه خديجة برسول الله حين جاءه الوحى أول مرة ، فقال انه الناموس الذى أنزله الله على موسى وعلى عيسى ، وبشر محمدا صلى الله عليه وسلم بالرسالة والنبوة ، كما أخبره

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٧ .

(٢) سورة الحج الآية ١٧ .

(٣) سورة سبأ ٤٠ ، ٤١ .

ان قومه سيعادونه ويخرجونه ، وقال له ما جاء نبى بمثل ما جئت به الا أوذى وعودى (١) .

وهناك مصادر تدل على أن ورقة كان نصرانيا ، ولا منافاة بين هذا وبين تحنفه ، فهو تعلم النصرانية ولكنه تحنف .

وأورد ابن هشـــام نبأه هو وعبيد الله بن جحش وعثمـــان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل اذ اجتمعـــوا سرا فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شىء ، لقد أخطـــأوا دين أبيهم ابراهيم ، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفـــع ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا فانكم والله ما أنتم على شىء فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم (٢) .

وكان زيد بن عمرو بن نفيل يقول لقريش : ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيرى (٣) ، وقد منعه الخطاب بن نفيل عمـــه من الهجرة ومنعه أيضا من دخول مكة واقامه بحراء زمنا خوفا ان يفتن شباب قريش . ولكنه تمكن أخيرا من الخروج لما يريد فبلغ برحلته الموصل ودخل الشام يسأل عن الحنيفية دين ابراهيم ثم قتل فى بلاد لخم وهو عائد الى مكة ، وقد أخبره بعض الرهبان أن النبى السامى المترقب سيكون من العرب وأنه أظل أوانه .

وكاد يستقبل الكعبة ويقول : لبيك حقا حقـــا ، تعبدا ورقا ، عذت بما عاذ به ابراهيم ، وكاد يسجد على راحته ويقول : اللهم انى لو أعلم أى الوجوه أحب اليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه .

---

(١) انظرة سيرة بن هشام جـ ٢٥٦/١ وما بعدها ، والبخارى باب الايمان .

(٢) نفســـه ٢٤٢ .

(٣) نفسه من ٢٤٦ وما بعدها الى ٢٥٠ . والاصابة ٥٦٩/٣ ت ٢٩٢٣

وحديث هؤلاء الحنفـــاء يدل على الحيرة التى انتابت بعض المستنيرين ازاء دينهم ، ومدى أنفتهم من عبادة الأوثانة كما يرى من وجهة أخرى مدى حرص القرشـيين على الابقـاء على اصنامهم ، وأنهم حتى قبل البعثـة النبوية لم يكونوا يسمحون بظهور افكار دينية تخالف ما هم عليه .

لهذا لم تنتشر تعاليم اليهودية وديانتها فى نجد وعلى الأخص فى مكة وما حولها ، وكذلك لم تجد المسيحية لهـا مجالا ، وابقى القوم على وثنيتهـم فى حرص بالغ ، ولم يسمحـوا لأى ديانة أخرى أن تعيش بينهم .

لمحة من حيـاة نبى الاسـلام

ولد النبى محمد صلى الله عليـه وسلم سنة ٥٧١ م ، وهو عام الفيل الذى قاد فيه أبرهة جيشا الغزو مكة وهدم الكعبة .

وقد مات أبوه وهو حمل فى بطن أمه ، واسمه المشهور هو محمد ويقال أن أمه كانت سمته باسم قريب منه أو لعلها سمته بأكثر من اسم ، وجاء فى القرآن الكريم تسميته باسم محمد وباسم أحمد .

وماتت أمه وهو فى السادسة من عمره ، فكفله جده عبد المطلب ولكنه مات بعد عامين من كفالته اذ كان محمـد فى سن الثـامنة ، فأنتقلت كفالته الى عمه أبى طالب ، والد الامام على ، الذى تنتسب اليـه فرقة كبيرة من المسلمين ، وكان أبو طالب كثير الأولاد ، ولهذا عندما أصبح محمد ذا مال وله بيت ، سـاعد عمـه بضمه عليا هذا اليــه .

ولما شب محمد وترعرع عرف بسمات جعلت له مكانة مرموقة بين أهل مكة جميعا ، وأبرز هذه السمات الصدق والعفة والأمانة ورجاحة العقل وحسن التصرف فى الأمور . وأطلق عليه المكيون اسم الأمين وهو اسم يدل على مبالغته فى الأمانة وتفوقه فيها على الآخرين

واشتغل فى صباه برعى الغنم أجيرا لأصحابهـا ، وذهب الى الشام مرتين مرة وهو صبى فى كنف عمه ، تشبث به وهو يتهيـأ للسفر فى تجارة فرق له عمه وصحبه معه على حداثة سنه ، وقال : لأخرجن به ولا يفارقنى أبدا (١) . ومرة أخـرى وهو رجل فى سن الرابعة والعشرين استأجرته خديجة ليشرف على تجارة لها ، وكانت

---

(١) سيرة بن هشام ج ١١٦/١ .

أمانته فى هذه الرحلة مما رغبها فى الزواج منه ، وكانت الرحلة الى سوريا تستغرق شهرا فى الذهاب وشهرا فى العودة (١) .

تزوج من السيدة خديجـــة بنت خويلد من بنى زهرة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره وكانت هى فى نحو الأربعين من عمرها . وكانت أرملة تزوجت مرتين قبـــله ، وكانت ذات ثراء وعقل جعل الكثيرين يرغبون فى الزواج منها ، ولكنهـــا آثرت محمدا ــ على قلة ماله ــ لما فيه من صفات عقلية وخلقية ، وكان يحبهـــا ولم يتزوج غيرها وهى حية ، وظل يذكرها ويثنى عليها .

نشأ محمد صلى الله عليه وسلم أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة وهذا أمر لا شك فيه ولا غرابة ، فالأميـــة كانت فاشـــية فى مكة ، والذين يعرفون القراءة والكتابة كانوا قلة نادرة ، أتيحت لهم ظروف خاصة جعلتهم يظفرون بهذه الميزة . وهو لم يجلس الى معلم ولا كان بمكة معلمون ولا دور تعليم ، ولا كان لديه من الرخاء المالى ما يعينه على السفر للتعـــلم . وقد تشكك « الفريد جيوم » فى أمية محمد صلى الله عليه وسلم وقال انه كان تاجرا ولا بد للتـــاجر أن يقيـــد حساباته (٢) . وهو استنتاج لم يبين على حجة ، اذ كان هناك تجار كثيرون لا يعرفون القراءة والكتابة .

ولم يكن بمكة دعاة لليهودية ولا للمسيحية ، ولا عرف عنه صلى الله عليه وسلم أنه تعبد على أى من هاتين الديانتين ، ولكنـــه كان يتعبد على دين ابرهيم وكانت عبادته هى التأمل .

وحبب اليه الخلاء والانفراد ، واختار لوحـــدته غارا فى جبل قريب من مكة هو غار حراء ، وكان يتزود لذلك ويمكث فى هـــذا

---

(١) نفسه جـ ٢٧٠/٢ .

(٢) Legacy Israel P. 130.

الغار ليالى ذوات عدد ، وفى هذا الغـــار جاءه الوحى أول ما جاءه . والوحى هو الملاك جبريل عليه السلام (١) .

وأول ما نزل عليه جاء فى صورة انسان فضمه اليــــه وقال له اقرأ وارتاع النبى وأخـذ لهذا المنظر المفـــاجىء ، وأجاب : ما أنا بقارىء ، أى لست أعرف القراءة ، وبعـد أن كررها جبريل ثلاثا ـ قرأ عليه الآيات الأولى من سورة اقرأ ـ وهى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانســـان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » (٢) .

ولم يكلف فى بداية الأمر بتبليغ الناس رسالة ، ولا ألقيت عليه تعليمــات ، ولما أمر بتبليغ الدعوة ، ودعا قومه أن يتركوا عبـــادة الأوثان ويعبدوا الله وحده أخذتهم الدهشـــــة لهــذا الدعاء ، انهم يعرفون محمدا بالأمانة والصدق ، وليس لمثله أن يكذب على الناس أو يكذب على الله لكنهم كانوا قد ألفوا عبادة الأوثان ولها فى نفوسهم مكانة ليس من السهل أن تتزعزع ، ولا من الهين عليهم أن يهجروها وقام مجد قريش على رعاية الكعبة مقر أصنامهم ، وهم لم يتطلعوا الى دين غير الوثنيـــــة ولا طمع دعاة الأديان الأخرى فى استمالتهم ، لهذا كان لابد أن يقوم عداء بينهم وبين صاحب الدين الجديد .

كانت هذه الدعوة غريبـــة على عقولهم ، وخيل اليهم أن محمدا يريد أن يكون ملكا أو يجمع لنفسه مالا ، لهــذا عرضت قريش أن تجمع له مالا ولما ذهب الى رؤساء القبائل يدعوهم للاسلام اشــترط بعضهم أن يكون لهم الأمر من بعده (٣) .

---

(١) الوحى أيضا نزول التعليم الدينى اليه (ويسمى القرآن وحيا لانه يوحى به ولكن الكلمة لا تكون بمعنى الايحاء .

(٢) سورة العلق الآيات (١ ـ ٥) .

(٣) ابن هشام ٢/٢٨٩

لهذا استجاب لمحمد ضعاف الناس الذين لا مطامع لهم ، وحاربه الأقوياء خوفا على سلطانهم .

ثم أن الاسلام دعا الى تفكير ميتا فيزقى والقوم الفوا او يعتمدوا على حواسهم .

وكانت مناوأة قريش له أهم ما صد الناس عنه ، كانوا ذوى قوة وألف الناس أن يتقادوا لهم فى شئون الدين ، وكانوا حماة الكعبة وهى قبلة العرب ومبارتهم فى عبادتهم .

وكان القرشيون يتلقون الوافدين الى مكة فيصدونهم عن الذهاب الى محمد وربما دفعوا لهم الأموال كما فعلوا مع الأعشى الشاعر اذ أعطوه مائة من الأبل وردوه (٢) ، وكان النبى يأتى القبائل فى موسم الحج فيعرض عليهم الاسلام ويقرأ أمامهم القرآن ، فكان أبو لهب عم محمد صلى الله عليه وسلم يتقفاه ليصد الناس عنه حتى كان يضربه بالحجارة ، وكان النضر بن الحارث يتبعه أيضا فيجلس المجالس التى جلسها ، ويأتى الى القبائل التى جاء محمد اليها ، فيحدث الناس بأخبار الفرس ، ويقول : ان محمدا يخبر أخبار السابقين وأنا أخبركم بمثلها ، وبلغ من نشاطه فى صد الناس عن الاسلام أن أحضر جاريتين مغنيتين لتجتذبا الشباب بجمالهما وحسن غنائهما فاذا اجتمعوا حدثهم عن محمد وحرضهم عليه ونهاهم عن اتباعه وفيه نزل قول الله تعالى : **((ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا))** (١) .

وبعد ثلاثة عشر عاما لم يدخل خلالها الاسلام الا الضعاف ونفر قليل من أشراف قريش ، استطاع محمد أن يفلت من مكة وأن يستقر فى المدينة ، فانتشرت دعوته وأقبل الناس يدخلون فى دين الله أفواجا .

---

(١) سورة لقمان الآية ٦ .

ومات رسول الله بعد عشرة أعوام من هجرته انتشر خلالهـــا الدين وأذعنت له قريش وحطمت الأصنام ودان الناس بدين الاسلام وأرسل صلى الله عليه وسلم رسله ورسائله الى رؤساء القبائل حتى لقــد أرســل الى كل من كسرى وقيصر يدعوهما للدخــول فى دين الاســـــلام .

وكانت كتابته الى كسرى وقيصر بل الى أتباعهما من العرب مما يعد جرأة وتهورا حتى لقد أراد المنذر الغسانى أن يقوم بحملة حربية لتأديبه ، وبعد بضعة أعوام دخلت سوريا والعراق فى الاسلام ، وبعد أقل من ربع قرن كان للمسلمين مساجد فى جزر البحر الأبيض وفى أفريقية وبلاد فارس ، وقبل أن ينقضى قرن كامل كان للمســلمين مساجد فى أوروبا ، وكانت مســاجد المسلمين مدارس لتعليم الدين الاسلامى ، وفى القرن الثانى الهجرى ترجم تراث اليونان والفرس الى اللغة العربية ، وامتزج بالتعاليم الاسلامية وتكون من هذا المزيج نوع من الثقافة يعرف بالفكر الاسلامى ، وكان هــذا الفكر ذا تأثير فعال فى نهضة أوروبا الحديثة .

كان القرآن هو عماد الفكر الاسلامى وأساسه ، وكان انتشاره بكل هذه السرعة من الأحداث النادرة فى تاريخ البشرية ، وأعز من انتشاره وأعجب تأثيره الفعال فى نفوس أتباعه .

كيف حدث هذا كله ، وهل كان محمد يعرف فلسفات القدامى ودرس الديانات ؟ لقد رأينا أنه نشأ أميا وان بيئته لم تكن مهد ثقافة ولا مسرح أحداث سياسية ولا دخلتها ديانات غير الوثنية .

نحن المسلمين نؤمن كل الايمـــان . ولدينا أدلتنـــا الكافية ، أن القرآن كتاب الله نزل به الروح الأمين — جبريل — على قلب النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن هــذا النبى الكريم متهما فى أمانتــه حتى يكذب على الله ، والقرآن بين أيدينا كتاب معجز ، تحدى الناس أن يأتوا بكلام مثله فلم يستطيعوا ، وما زال التحدى قائما .

وقد رسم القرآن للمسلمين حدود الحياة الناجحــة السليمة وبها تيسر لهم النجاح ، وبها قدموا للبشرية ما أسعدها حقا وسما بانسيانيتها .

أما منكرو الاسلام ، ففيما رأينا أنهم كونوا عقيدة عن الاســلام قبل أن يدرســـوه ، فلما قرأوه كان اتجاههم أن يحوروه ليلائم ما اعتقدوا ، وكان الأولى أن يدرسوه على حيدة ونزاهة فيؤمنوا به ان رأوه حقا ، أو يبينوا باطله ان رأوا باطلا ، وكل بحوث المستشرقين التى قرأناها ينقصها هذا العنصر ، كما ينقصهم فوق هذا أن يفهموا اللغة العربية كى يفهموا القرآن .

ولنستعرض جانبا من آرائهم .

شـبهات المستشرقين

لا ريب أن تهجم المستشرقين على الاسلام ، واتهاماتهم لنبيـــه محمد صلى الله عليه وسلم أصبحت الآن أقل بكثير مما كانت بالأمس ولكن الاسلام لا يزال يواجه عداء مريرا مرجعـــه فى الأمس واليوم عدم فهم اللغة العربية والقصور عن ادراك ما فى التعبير القرآنى من مجازات ، ثم ان الباحث الغربى اعتقد أولا بطلان الاســـلام وعدم صحة الدعوة المحمدية لهذا يبحث ليجد ما يبرر معتقده ، فهو ليس باحثا عن الحقيقة ولكنه باحث عن شيء آمن به من قبل . وهذا فرق ما بين الباحث المســـلم والباحث الغربى ، فنحن المسلمين نؤمن بموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء ، وحين نتحدث عن اليهودية أو المسيحية نحمل فى قلوبنا احتراما لدعاتها وأنبيائهـا ، وفى كثير من المواقف نجد الكاتب المســـلم أرفق بالمسيحية من المسيحيين وأبر باليهودية من كتاب اليهود .

ولنرجع قليلا الى الوراء لنرى كيف بدات دراسة المستشرقين للقرآن وحياة نبى الاسلام والرسالة التى جاء بها .

بدات هذه الدراسة من وقت مبكر وفى العصر الوسيط نفسه ، فقد كان دخول المسلمين أسبانيا وجنوب ايطاليا وصقلية مما نبــه الأذهان نحو هذه الدعوة ونبيها والكتاب الذي جاء به ، والعــلاقة بين الطرفين على اى حال علاقة عــداء لا تسمح بوجود روح طيبــة للبحث .

وكتابة العصر الوسيط تتسم بجهل فاضح يجعلهــــا مضحكة لا تقرأ الا للوفاء بحق التاريخ ومعرفة نمو الأفكار وتدرج البحوث .

فاسم محمد لم يكن معروفا تماما للكتاب اللاتينيين ولهـــذا كتبوه بعدة رسوم (١) ، وظن بعضهم أن هناك صنما يعبد بهذا الاسم (٢) .

وخلال الحروب الصليبية كانت الافتراءات على الاسلام سلاحا من أسلحة الدعاية ضد المسلمين ، وترجم القرآن ترجمة ناقصـــة شـــديدة التحريف ، لأن المترجم لم يستطع فهم النص القرآنى . وظلت صعوبة اللغة العربية حائلا دون فهم الاسلام وتقدير الأعجاز القرآنى ، حتى ان الكاتب الانجليزى كارليل ، يقول عن القرآن انه كلام ركيك ثقيل على النفس لولاما ما يحتمـــه الواجب العلمى على الدارس الأوروبى ما اســـتطاع صبرا على قراءته (٣) ، فاذا كان القرآن . وهو المعجزة التى تحدى بها محمـــد العرب ، يبـــدو فى نظره سقيما متهافتا . فكيف يقال انه يفهم العربية أو يؤخـــذ برأيه فى شيء يستخلصه من نصوصها ؟

وكارليل يعتبر فى نظر الكثيرين مسالما للاسلام ، لأنه مدح النبى محمدا صلى الله عليه وســـلم فى كتابه هذا بأنه قضى على عبـــادة الأبطال ، ولأنه جارى الاسلام فى انكار التثليت فى المسيحية وغيرها ، وقد رد عبارة كارليل بعض الكتاب المحدثين منهم آربرى فى مقدمـــة ترجمته القرآنية ، ومنهم جب فى كتابه المحمدية ، ولكن حتى هذين لم يجيدا فهم النصوص القرآنية (٤) .

ويقف المستشرقون المعاصرون عند نصوص معينـــة من القرآن يتخذون من فهمهم الخاطىء فيها دليلا على أن محمدا استقى تعاليمه من الكتابيين ، وليس فيها دليل على ما يريدون .

---

(١) راجع تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٣٥ وما بعدها .

(٢) نفســـه .

(٣) أنظر مقدمة كتاب الابطال وعبارة الابطال ص ٢٦ وما تعدها .
"The Herows and Herows Worship"

(٤) فى ترجمة الدكتور آربرى للقرآن عبارات كثيرة تدل على عدم فهمه اللغة العربية جيـــدا .

من ذلك الآية الكريمة : **يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا** (١) .

قال المستشرق الانجليزى الفريد جيوم (٢) ، وتابعه آخرون : ان محمدا كان دارسا مبتدئا للكتاب المقدس ، فظن أن مريم أم عيسى عليه السلام هى مريم أخت هرون ، مع أن بين عيسى وهرون زمنا طويلا !

ومن العجيب أن يتناقل الفكرة آخرون ، ويتمسكوا بها .
وكلمة أخت فى اللغة العربية لا تعنى فقط الأخوة فى النسب ، وانما تعنى مع ذلك الشبيه والمماثل ، فيقال : هذا الشاعر أخ للآخر ، شوقى مثلا أخ لشكسبير أو للمتنبى ، ودانتى أخ للمعرى ، والغرض أن كلا منهما يشبه الآخر ، وليس المعنى أن أبوى هذا هما أبوا الآخر ، وقد كانت مريم أم المسيح معروفة بورعها وتقواها ، وهى الأنثى الوحيدة التى تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا فكانت ضمن سدنة بيت المقدس .

وكانت تشبه بهرون فى ورعها وتقواها ، فلما حملت بعيسى عليه السلام وهى لا زوج لها ظنوها ارتكبت فاحشة واستعجبوا لحدوث ذلك منها وهى بارة تقية ، فقالوا لها كيف تفعلين هذا مع أنك شبيهة لهرون فى عبادته وطهارته . فالآية لا تشير بوجه ما الى أن محمدا قال انها أخت موسى وهرون . وليس فيها ما يوحى أنه درس الكتاب المقدس أو اطلع عليه .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد نجران حين جاءوا يناظرونه : « ان عيسى أخى » ومحمد يعرف أنه لا أخ له ، وهو لم ير عيسى بل بينهما ما يقرب من ستمائة عام ، ولكنها أخوة

---

(١) سورة مريم الآية ٢٨ .

(٢) Legacy of Israel P. 18

فى النبوة والرسالة ، والأنبياء جميعا على تفاوت الأزمنة بينهم أخوة لأن رسالتهم واحدة وهى الدعوة الى عبادة الله .

ويقف الكثيرون عند آية أخرى لا يفترق أمرها عن الآية السابقة وهى قوله تعالى : **فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك** (١) .

فقد فهموا منها أن محمدا أمر أن يسأل أهل الكتاب ، واذن فهو قد سألهم ، واذن فرسالته مستوحاة منهم .

هذا ما درجوا عليه وقد ورطهم عدم فقه اللغة العربية فى أمور .

١ ـ منها ان الخطاب يوجه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد به المسلمون ـ وهو أسلوب من أساليب اللغة العربية ، كما فى قوله تعالى : **« يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين »** (٢) ، فالنبى متق الله ولم يطع الكافرين ولا المنافقين ، ولكن الخطاب موجه الى أمته ، وكما فى قوله تعالى : **« اتبع ما أوحى اليك من ربك لا اله الا هو وأعرض عن المشركين »** (٣) ، وهو كان معرضا دائما عن المشركين ، وفى اللغة العربية يوجه الخطاب لكل من يمكن مخاطبته وهو فى صيغته خطاب لشخص واحد كما فى قوله تعالى : **« ولو ترى اذ وقفوا على النار »** (٤) ، **« ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت »** (٥) ، والعرب تقول : اذا عز أخوك فهن . وهو خطاب لا يختص بأحد .

---

(١) سورة يونس الآية ٩٤ . وانظر المصدر السابق ، فقد ظن جيوم أنه وجد فى هذه الآية حجة دامغة .

(٢) أول سورة الاحزاب .

(٣) سورة الانعام الآية ١٠٦ .

(٤) سورة الانعام / ٢٧ .

(٥) سورة سبأ / ٥١ .

٢ ــ ومنها أن السؤال لا يعنى الاستفهام ، وانما يعنى التأمل والبحث ، ومن ذلك قوله تعالى : **« وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون »** (١) . ولا يمكن أن يسأل محمد رسولا من الرسل الذين سبقوه ، كيف وبينه وبين آخر واحد منهم نحو ستة قرون ، والخطاب أيضا موجه الى الأمة وليس لمحمد ، والمراد ابحثوا رسالات الأنبياء جميعا فستجدونها تدعو لعبادة الله وحده ، ولا تسمح بعبادة آلهة من دونه .

٣ ــ ومنها أن الجملة مشروطة بوجود الشك « فان كنت فى شك » ومحمد لم يكن فى شك أبدا مما أنزل الله اليه .

واذن فما بنى عليه هؤلاء نتائج خطيرة فى طعن الاسلام أمر لا أساس له ، ومرده الى ضعفهم فى اللغة العربية .

وقد يذهب الغلو فى اتهام نبى الاسلام مذهبا لا يحتمله عقل ، فقد ذهب بعض المستشرقين ــ وجاراهم المؤرخ الكبير الدكتور فيليب حتى (٢) ، الى أن محمدا استقى معلوماته من مصادر كثيرة منها ، صاحباه صهيب الرومى وسلمان الفارسى ، وزوجه مارية القبطية التى سماها « حتى » حظية ، ونحن ندرك أنهم لا يؤمنون بما يقولون ، وانما هو كلام يجارون به هواهم أو يجارون به الأوساط التى تستريح لهذا الكلام ، والدكتور حتى فى كتابه تاريخ العرب المختصر (٣) . أثنى على القرآن ثناء بالغا ، وقال انه يأخذ بقلوب سامعيه لما فيه من قوة التركيب وحسن اختيار الألفاظ وتآلف النغم ، وأنه تركيب عجيب ، ثم يعود فى كتاب آخر فيقول انه مستقى من غير العرب .

---

(١) سورة الزخرف / ٤٥ .

(٢) انظر كتاب الاسلام أسلوب حياة . Islam the way of life ص ٥٧ وغيرها .

(٣) راجع النسخة العربية .

هذا وصهيب الرومى عربى من بنى النمر بن تولب ، سبته الروم طفلا وباعته ، ونشأ بمكة ويقال انه عتيق عبد الله بن جدعان ، فماذا عسى أن تكون ثقافة طفل أو صبى حتى يستفيد منه محمد ؟ وهو لم يذهب الى بلاد الروم ولم تكن الدولة البيزنطية دولة توفر العلم حتى يفيض على الصبيان ، ويقال ان صهيبا هذا نشأ بالعراق (١) .

أما سلمان فقد اتصل بالمسلمين بعد الهجرة ، ورحلته كانت بحثا عن الحقيقة وهى معروفة ، واتصل بالنبى بعد أن أعلن دعوته بأكثر من خمسة عشر عاما (٢) .

أما مارية فقد أهداها له المقوقس حين أخذ رسول الله يرسل كتبه ورسله الى الملوك والحكام يدعوهم للاسلام ، فهى كانت رقيقا ساذجة لا ثقافة لها ، وقد كانت أختها سيرين عند حسان بن ثابت ، ولم يظهر عليها ثقافة ، ولا أفادته علما ، ولم تكن أى منهما مثقفة .

وكان ينبغى أن يطهر هؤلاء أقلامهم من مثل هذا الهراء .

ويصر هذان الكاتبان على أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن أميا ، بل كان قارئا كاتبا ، والحجة فى هذا أنه كان تاجرا ، والتاجر لابد أن يراجع حساباته ويضبطها ولا يتأتى ذلك لأمى (٣) !!

ولا يستطيع الشخص أن يصادم حقائق التاريخ بكل هذه السهولة فلم ترد أى دلالة تاريخية على أن محمدا كان يقرأ شيئا أو يكتبه ، وكان فى عصره عشرات من التجار لا يقرأون ولا يكتبون ،

---

(١) الاصابة ت ٤١٠٤ جـ ١٩٥/٢ .

(٢) انظر سيرة بن هشام جـ ٢٢٣/١ — ٤٢ .

(٣) ممن اصروا ايضا على انه (ص) لم يكن أميا .. وات فى كتابه «محمد»

وهم من ذوى الثراء والملكية المنوعة ، ونحن الآن وبعد أربعة عشر قرنا من نزول القرآن الكريم نجد بيننا تجارا كبارا أميين (١) .

وقد وصف القرآن النبى بالأمية فقال : ((**الذين يتبعون الرسول النبى الأمى**)) (٢) ، وقال : ((**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذن لارتاب المبطلون**)) (٣) .

وحين تجمعت قريش لغزوة أحد ارسل العباس بن عبد المطلب كتابا سريا يخبر به رسول الله بهذا التجمع ، فدفع النبى الخطاب الى ابى فلما قراه وعلم النبى بهذا الخطر الذى سيواجه المسلمين استكتم أبيا ما قرأ ، ولو كان هو يحسن القراءة لأبقى على هذا السر ولا احتاج أن يستكمه من قراه ، وحين كتبت ثقيف شروط اسلامها للنبى اجازت فيها الربا والزنا ، فلما قرىء الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للقارىء وهو يقرأ كلمة « الربا » : ضع يدى عليها ، فوضع يده فمحاها ، وقال ((**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا**)) ، ولما بلغ كلمة الزنا قال ضع يدى عليها فمحاها أيضا وقرأ ((**ولا تقربوا الزنا**)) (٤) .

وأمية الرسول أمر متواتر لا يحتمل تشكيكا ولا يحتاج الى بحث من جديد ، وهى مما يؤكد أن القرآن كله وحى من الله وأن النبى محمدا لم يكن يملك وسيلة التعلم وهى القراءة والنظر فيما ترك الأولون .

---

(١) نذكر فى هذا الصدد أن « مصطفى قشاشة » صاحب مجلة « الصباح » كان أميا ، وأن « محمد ابراهيم » صاحب المكتبة التجارية الكبرى ، كان تاجر كتب وصاحب دار نشر وكان من أنجح الكتبيين فى عمله وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب .

(٢) سورة الاعراف / ١٥٦ .

(٣) العنكبوت / ٤٨ .

(٤) راجع فى كتاب تاريخ القرآن للاستاذ ابراهيم الابيارى فصلا مستفيضا فى هذا الموضع ص ٤٧ وما بعدها .

أما هؤلاء الذين أشاروا اليهم من أصحابه من غير العرب فقد جاءوا محمدا يتعلمون منه ويتبعونه ، ولو كان لديهم ما ليس لديه من العلم ما هان عليهم أن يصغروا أمامه ويتخذوه اماما لهم . كيف وهم أساتذته وهو التلميذ الذى يستفيد ؟

ولم يعرف عن واحد منهم انه كان مبرزا فى جانب فكرى أو كان ذا ثقافة أو علم جديد .

والشىء الوحيد الذى تعلموه من سلمان هو حفر الخندق حول المدنية والعرب لم يكونوا يعرفونه ، ولم يكتم أحد مشورة سلمان ولا ادعاها محمد لنفسه ، ولو كان لسلمان علم وفقه لعرف عنه ، ولما احتاج الى هذه الرحلة الطويلة التى طافها حتى استقر بجوار محمد . والقرآن لا يكفى أن يؤلفه شخص يقرأ ويكتب ، فهو موسوعة علمية تلم بجوانب فكرية كثيرة ، وبه آيات تشير الى مستكشفات علمية حديثة ونظريات ثابتة لم يعرفها العلماء الا حديثا ، فلو أن عددا من العلماء تضافر على تأليفه لأعوز ذلك الى ثقافات واسعة وزمن متطاول للدرس والتأليف .

ولهذا نحن المسلمين نؤمن بيقين وبرهان انه كلام الله !

وقد عقد المستشرق الانجليزى W. Montgomery What فصلا فى آخر كتابه « محمد » بعنوان « هل كان محمد نبيا » (١) وانتهى فيه الى أن محمدا كان شديد الاخلاص لدعوته شديد الثقة فى نفسه فكان اذا حدثت حادثة فى حياته أو أعتقد أن شيئا ما صالح انفعلت نفسه بما حدث أو اعتقد ، فيصوغه فى كلام قرآنى ثم يعتقد هو نفسه أن هذا كلام الله أوحى اليه ، فيقدمه للناس على انه كلام الله .

---

(١) See P 237.

هذه هى الفكرة التى قام عليها هذا الفصل .

وقد أجملت أخطاء المستشرقين فى أمرين هما أيضا أساس ما هنا ، انهم لا يؤمنون بمحمد ويبحثون عما يبرر عقيدتهم ، وانهم لا يفهمون العربية .

ولو ان هذا الكاتب كان يحسن فهم العربية لأدرك أن هناك فرقا واسعا بين أسلوب القرآن وأسلوب محمد ، فالأحاديث النبوية تشترك مع القرآن فى موضوعاته ، اذ هى مادة تفسيرية توضح غوامضه وتفصل مجملاته ، وكما قال محمد صلى الله عليه وسلم : الا انى أوتيت القرآن ومثله معه ، وتوجد أحاديث نبوية تشترك مع القرآن فى قصصه وتشريعه ، ويدرك كل قارىء يفهم العربية ما بين الاسلوبين من فرق بعيد . فلو كان هذا القرآن انعكاسا لانفعالات محمد بما يحدث فى حياته أو يجرى فى خياله من أفكار لكان أسلوبه هو أسلوب الأحاديث ، ثم انه لا يمكن أن يصدر عن كاتب واحد أسلوبان يتبايتان هذا التباين البعيد .

● **عدم ايمان العرب به :**

وهل تكذيب العرب دعوة محمد يعنى بطلانها ؟

تلك مسألة أقام لها « الفريد جيوم » الدنيا وقعدها (١) .

يقول : ان المثل لا كرامة لنبى فى وطنه لا ينطبق على أحد مثل ما ينطبق على محمد ، ويتخذ من تكذيب قريش له دليلا على بطلان دعوته . وهو كلام خطأ فى استدلاله واستنتاجه جميعا .

لقد كذب بنو اسرائيل موسى تكذيبا عمليا ، وهو قائدهم ومخلصهم من نير فرعون . نهاهم عن عبادة العجل فعبدوه حين تغيب عنهم ، وقال لهم اعبدوا الله رب هذا الكون فقالوا أرنا اياه

---

(١) ايظر كتاب « تراث اسرائيل Legacy of Israel

« **لن نومن لك حتى نرى الله جهرة** » (١) وامرهم أن يتركوا العمل يوم السبت فتركوا العبادة وذهبوا للصيد .

ولقى عيسى من تكذيب قومه اليهود ما جعله يتركهم ويوجه الدعوة لغيرهم ، ثم بلغ من تكذيبهم ومعارضتهم له أن قدموه للمحاكمة وطلبوا صلبه ، أفيدل ذلك أيضا على أن المسيح كان من الكاذبين ؟

على أن الذين حاربوا المسيح لم يكونوا أميين ولا من السذج البسطاء ولكن كانوا الصفوة من علماء بنى اسرائيل ، كانت الرئاسة الدينية بيد « حنانيا » و « قيافا » من الصدوقيين ، وناصبه العداء بجانبهما رؤساء الشيوخ والكتبة والفريسيين والآسيين . واذ قال بيلاطس انه بار وغسل يديه علامة على التبرؤ من دمه ، أصروا هم على صلبه وحين طلب أن يعفيه قالوا سامح برابا س واصلب المسيح (٢) .

وقد كذب هؤلاء قبل ذلك زكريا عليه السلام وقتلوه ، وكذبوا يحيى وتمنوا الخلاص منه ، فلما قتل ظلما سكتوا وما كان هيرود لينجو من فعلته لولا رضا أعلام اليهود عما فعل ، فكان هذا مما اسكت العامة فلم يؤمن جيوم بالمسيح بعد كل هذا ويكذب محمدا .

ولماذا يرى أن محمدا هو الذى لم يكن له كرامة فى وطنه ، وكما قال ورقة بن نوفل لم يأت أحد بمثل ما أتى به محمد الا عودى ، وهل يقوم مصلح عظيم بقلب نظام الحياة فى قومه وتغيير نظمها وقوانين ثم لا يعاديه هؤلاء الذين غير حياتهم ومكانتهم الاجتماعية؟

ثم ان محمدا لم يحارب من قومه العرب بل حورب من قومه القرشيين فكان موقفه أشبه بموقف المسيح الذى حاربه بنو اسرائيل وآمن به من عداهم .

---

(١) سورة البقرة الآية ٥٥ ، واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة

وقد حاولت قريش وهى المسيطرة على البيت وشئون الحج أن تحول بين الدعوة الاسلامية والوصـــول الى قبائل العرب الأخـــرى فكانت تتصدى للقبائل تحذرها من السماع الى محمد ، كما قدمنا ذلك . وكان عمه أبو لهب يطارده ويرميه بالحجارة حتى لا يقابل الناس ، فلما فتح المسلمون مكة وحطموا الأصنام قدمت الوفود تترى راغبة فى الاسلام حتى اضـــطر النبى أن يرجىء حجه كى يقـــابل كل هؤلاء النـــــاس ، وهم جاءوا من أطراف الجزيرة ومن اقاصيها كما جاءوا من الجهات التى حول مكة والمدينة مما يدل على أنهم كانوا يصبون الى الاسلام لولا ما يخشونه من بأس قريش

ومحمد كان رغم كراهة قريش له ذا كرامة فيهم وتجلة لما عرف به من سامى الأخلاق وشريف الخصال ، وكيف يكون غير كريم من يعرف باسم الأمين ، وكيف يكون غير كريم من يختار من بين القوم للفصل فى مشكلات الأمور .

لهذا يبدو « جيوم » غير موفق فى افتراضه كما هو غير موفق فى استنتاجه .

هل انتشر الاسلام بالسيف ؟

هذه مسألة أخرى يثيرها كثير من المتحاملين على الاسلام ، واستعراض الدعوة الاســـلامية من بدايتها يهدى الى الفصـــــل فى هذا الاتهام .

رأينا آنفا كيف ظل النبى محمد صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاثة عشر عاما يشرح لقومه فكرة التوحيـــد ووجـــوب الايما بالله واحد وكيف وقف له صناديد قريش بالمرصاد ، يحولون بين الناس وبين اتباعه ، ولقد لقى الضعاف الذين اتبعوه من المهانة والذلة والتعذيب مالا يحتمله الا الذين ملأ الايمان اليقين قلوبهم ، وكان العرب يأتون الى مكة من نائى الأمكنة ليقابلوا محمـــدا فتتلقاهم قريش

لتصـــدهم عن مقـــابلته وفهم شيء عن الرســـالة التى جاء بها ، وهاجر هؤلاء الاتباع مرتين الى الحبشة فرارا من العذاب، الذى يصبه عليهم القرشين ، ثم هاجر محمد نفسه الى المدينة فكان الذين أسلموا يفرون بليل ليلحقوا به ويتركون ديارهم ومالهم وكانت قريش تساوم من تدركه منهم كما فعلت مع صهيب الرومى (١) وأصبح المسلمون بالمدينة فقراء لا يملكون مالا ولا مأوى ، وهـــذا ما اضطرهم الى مصادرة قافلة قريش عائدة من سوريا يوم بدر . وحين افلتت القافلة لم يكن ثم مبرر لنشوب الحرب ، لكن قريشا أصرت على حرب المسلمين لتقضى عليهم فباءت بالهزيمة ، ثم كانت غزوة أحد ثأرا من القرشيين لهزيمتهم يوم بدر .

ونجد بعد هذا خيانة وغدرا للمسلمين ، كالذى حدث يوم الرجيع ويوم بئر معونة (٢) ، اذ كانت قريش تتحرش بالمسلمين وتحرض عليهم ، واليهود الذين حالفوا المسلمين يخونونهم ويعاونون أعداءهم عليهم ، كل هذا والمسلمون صابرون ، يودون الراحة من الحرب فاذا الحرب تلاحقهم بين حين وحين . وشعار المسلمين دائما هو : **« ولا يجرمنكم شـــنآن قوم على ألا تعدلوا اعـــدلوا هو اقرب للتقوى »** (٣) .

---

(١) ترك صبب لقريش داره ومـــاله ليسمحوا له بالهجرة ، وفيه نزل قول الله **ومن النـــاس من يشرى نفســـه ابتغـــاء مرضـــــاة الله .. الاصابة ١٩٥/٢**

(٢) فى كلا اليومين ، وفد على رسول الله (ص) جماعة تظاهروا بالاسلام وطلبوا ان يرســـل رسول الله معهم من يعلمهم الاسلام فلما كانوا بالطريق غدروا بهم فقتلوا من قتلوا ، وباعوا بمكة بعضـــا منهم .

وقد تآمر بنو النضير من اليهود على قتل محمد نفسه ، ثم حزب ابو ســـفيان قبائل العـــرب كلها ليهجموا على المدينة هجوما قاضيا . ولكن المسلمين اهتـــدوا الى حفر خندق حول المدينة اتقاء شر أعدائهم ونجوا منهم .

(٣) سورة المائدة/٨

وحين دخل المسلمون مكة وهم ذوو شوكة ولهم قوة وكثرة لم يقتلوا أعداءهم أو ينتقموا منهم بل سامحهم النبى وعفا عنهم بعد كل الذى أساءوا اليه به .

وما كادت العرب فى أنحاء الجزيرة تسمع ان محمدا انتصر على خصومه وفتح مكة حتى هرعت وفودهم الى النبى تعلن اسلامها حتى سمي العام التاسع للهجرة عام الوفود ، لم تبق قبيلة فى الجزيرة الا قدم منها وفد يعلن اسلامه ، وهذا يدل على أنهم كانوا من قبل يريدون الدخول فى الاسلام وقريش تصدهم عنه ولم يكن ثم من يضطر هؤلاء جميعا للوفود على رسول الله .

ولمن شاء أن يوازن بين هذا وبين المذابح العنيفة التى قام بها اباطرة الرومان بدءا من الامبراطور قسطنطين ليجبروا شعربهم على الدخول فى المسيحية بعد أن قبلتها الدولة دينا رسميا لها .

أما اليهودية فتاريخها حافل بالمذابح والحروب العنيفة ، لا لتهود الناس ، بل لتجليهم عن أراضيهم وتستولى على ممتلكاتهم ، فهم يرون انفسهم شعب الله المختار ، « .. **قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل** » (١) وبهذا استباحوا دماء الشعوب الأخرى ، واعتبروهم اتباعا لهم . أما الاسلام فهو دين الناس عامة ، والناس كلهم فيه سواء .

وبهذا نجد الاسلام قد سلم من وصمة التعصب كما سلم من وصمة الاكراه .

وقد التفت آرنولد آرثر الى حادث تاريخى ذى قيمة فى تاريخ الاسلام (٢) ، وهو أن الاسلام لم يخسر شيئا بخروج العرب من الأندلس ، لأن المسلمين من قبل كانوا قد ثبتوا أقدامهم فيما وراء

---

(١) سورة آل عمران . الآية ٧٥

(٢) انظر ، الدعوة الى الاسلام .

السند ، وكانت جموع آسيوية تزيد على سكان أسبانيا قد دخلت الاسلام . وهؤلاء لم يغز العرب بلادهم ولكنهم اقبلوا تلقائيا على الاسلام .

ويذكر المؤرخون أن رعايا الرومان فى مصر مهدوا للعرب فتحها وقدموا لهم المساعدات فى حربهم ، كما يذكرون ان سكان العراق تنفسوا الصعداء عندما أجلى العرب الفرس عن بلادهم ، بالاسلام بطبيعته دين سمح سهل الفهم يستهوى النفوس ويحبه من يفهمه ويستطيع أن يطهر نفسه من التعصب وينشد الحق للحق .

● التسامح الاسلامى :

كان المسلمون يخيرون الكتابيين من اليهود والنصارى بين أن يدخلوا الاسلام ، أو يظلوا على دينهم ويدفعوا الجزية ، واذا قبلوا دفع الجزية الزم المسلمون بحمايتهم ، وتركوا لهم الحرية فى اقامة شعائرهم الدينية .

وفى السنة التاسعة من الهجرة ــ وهى عام الوفود ــ قدم على النبى صلى الله عليه وسلم ، وفد من بنى تغلب ، وكان بينهم وثنيون أعلنوا اسلامهم ، وكان بينهم مسيحيون ظلوا على مسيحيتهم ، ومع انتشار الاسلام وتقدمه ظلت هذه القبيلة وبينها عدد كبير من المسيحين ، ولما جاء عمر بن الخطاب حذر من الضغط عليهم بأية وسيلة ، وامر أن تكون لهم الحرية التامة فى ممارسة شعائرهم الدينية ، ولكنه اشترط عليهم أيضا الا يحولوا بين أى فرد منهم وبين الاسلام اذا رغب أن يكون مسلما ، وان من أسلم منهم فاطفاله مسلمون لا يعمدون ، أى أنه اشترط ان تكون حرية الدين مكفولة من الجانبين ، وقد آنفت هذه القبيلة الكبيرة أن تدفع الجزية مقابل حمايتها فالتمست أن تدفع الزكاة بدلا من الجزية .

ونظرا لما جرى عليه المسلمون منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرسلوا معلمين الى القبائل ، أرسل أبو بكر الى العراق معلمين ، وذلك حرصا على الاسلام كى تظل له عقيدته وشعائره سليمة من التحريف ، وعين عمر موظفين لتعليم القرآن والتفقيه فى الدين ، وطلب أن يراعى حضور المسلمين صغارا وكبارا صلاة الجمعة وصلاة الجماعة ، فكان فى ذلك مزيد من الترغيب والجاذبية الى الدخول فى الاسلام .

ولا ريب ان المسيحيين بهذا التعامل تمتعوا بحرية لم يظفروا بها منذ قرون طويلة ، وبقاء المسيحيين فى العالم الاسلامى طوال هذه القرون حتى الوقت الحاضر دليل واضح على هذه الحرية .

وأكثر من هذا أن كان المسيحيون يولون وظائف كبيرة ، وكان معاوية قد توسع فى الحاق المسيحيين بخدمته وكذلك عبد الملك بن مروان حتى المعتصم العباسى كان فى بلاطه أخوان مسيحيان أحدهما فى منصب كمنصب الوزير اذ كان يوقع الوثائق الملكية حتى تأخذ صبغتها الرسمية والآخر كان لديه خاتم الخليفة ويرعى مالية الدولة ، وكان حبيبا للخليفة ، ويوم أن مات ابدى علبه حزنا شديدا ، وطلب احضار جثمانه الى قصره ، حيث أقيمت له الطقوس المسيحية عليه (١) .

وكان مؤدب عبد العزيز بن مروان عالما مسيحيا من الرها يدعى اتناس Athanasius فلما عين واليا على مصر صحبه أستاذه وجمع بها ثروة طائلة حتى كان الذهب والفضة عنده كالحصى (٢) .

وكثر بناء الكنائس الجديدة فضلا عن المحافظة على الكنائس التى كانت سابقة للفتح الاسلامى ، وقد نهضت بالقاهرة والمدن

---

(١) انظر الدعوة الى الاسلام ص ٨١ نقلا عن ابن أبى أصيبعة .

(٢) نفسه ٨١ ، ٨٢ .

الأخرى بمصر كنائس شتى ، ومع أن بلدة حلوان ـ تلك الضاحية الجميلة التى كانت مقر حكم عبد العزيز بن مروان مما أسسه المسلمون سمح للمسيحيين أن يبنوا بها كنائس لهم ، وأكثر من هذا أن نجد خالد بن عبد الله القسرى والى العراقين فى عهد هشام يبنى كنيسة لأمه تتعبد فيها ، وكانت نصرانية ، كما بنى بطريق انطاكية اليعقوبى المذهب كنائس فى انطاكية وما حولها ، ولم يعارضه المسلمون ولكن عارضه المسيحيون الذين قبلوا قرارات مجمع خلقيدونه .

هذا التسامح ينفى أن يكون هناك أى ضغط على المسيحيين الذين أقبلوا على الاسلام اقبالا منقطع النظير فى الديانات الأخرى ، ولا شك ان ما كانت الكنيسة الشرقية قد منيت به من التدهور الروحى والخلقى ، وما واجه المسيحيين من انقسامات مذهبية عديدة ، وما كان يحيط هذه المذاهب من غموض ، كل ذلك دفع بهم الى الالتجاء الى الاسلام .

ولمن شاء أن يوازن بين هذا التسامح الاسلامى والحرية الواسعة التى تمتع بها المسلمون فى ظل الاسلام ، وبين الاضطهادات العديدة القاسية التى واجهها المسيحيون على أيدى جستنيان وهرقل والمذابح الرهيبة التى ذهبت بآلاف الأرواح منهم عقوبة لا يثارهم مذهبا مسيحيا على آخر ، حتى لقد ذبح جستنيان خمسة وثلاثين الف شخص . وعاقب هرقل بالاحراق بالنار والاغراق فى نهر النيل والتعذيب الجسدى ، وهكذا ، وجد المسيحيون فى الاسلام متنفسا ورحمة لم يكونوا يحلمون بها .

وقد يطول الحديث فى هذا الموضوع ولكننا ازاء هذه التهمة من بعض الغربيين نذكر أن من المستشرقين الكبار من أمثال كتيانى Caetani وتايلور Canon Taylor وسير توماس آرنولد Sir thomas W, Armold وغيرهم يقررون سماحة الاسلام ،

وهناك آيات قرآنية كثيرة تنص على الدعوة للاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة .

ولم يجد الاسلام من المسيحية شيئا من التسامح ففداة خروج المسلمين من الأندلس قام الامبراطور فرديناند وزوجته الامبراطورة ايزا بيلا بحملة وحشية لاكراه المسلمين (الموريسكو) على التنصر ومن الأساليب التى اتخذت لذلك احراق الكتب الاسلامية ، فأحرقت فى غرناطة أكداس من الكتب ، ثم انشئت محاكم تفتيش تعاقب بالظنة ، حتى لقد أصدر فيليب الثانى قرارا بهدم الحمامات الأسبانية لأنها أثر من آثار الكفر ، ثم أصدر فيليب الثالث أمره النهائى بطرد المسلمين من بلاده ، ذلك انه لوحظ أن كثيرا منهم لا يزال يبقى على ديانته سرا . ويؤدى شعائر الاسلام فى الخفاء ويقال أن نحو نصف مليون من المسلمين ارغموا على مفارقة ديارهم ولقد رثى لهم لين بول Lane Poole ، بل رثى للاندلس واوروبا بوجه عام لما تردت فيه من ظلام وتأخر بعد غروب الشمس الاسلامية عنها .

ولعل فى هذا ما يكفى ردا على الذين يتهمون الاسلام بالقسوة واكراه المسيحيين على الدخول فيه .

أخطاء تجلت

وهناك أشياء كثيرة اتخذها الباحثون الغربيون امورا مسلما بها ، ودرجو عليها زمنا طويلا ، ثم تكشفت الحقيقة . فتبين بعد كل هذا الزمن أنهم كانوا مخطئين .

من ذلك قصة الطوفان التي جاءت في القرآن وجاءت في سفر التكوين قال غير واحد من الباحثين أن كثرة الفيضانات التي كانت تحدث من نهر دجلة والفرات هي التي أوحت بهذه القصة ، ونقلها الاسرائيليون عن البابلين في عهد السبي البابلي وكتابة التلمود ، ثم دلت الكشوفات الحديثة أنها موجودة في الديانة الصينية قبل أن ينزح السامريون الى أرض الرافدين ، وقد جاءت القصة في القرآن الكريم تختلف اختلافا كثيرا عما هو في التوراة ، وكان سياقها مع كثرة تردادها ــ يهدف الى غرض القصة القرآنية من العظة والزجر عن عصيان ما جاء به الرسول ، واذن فلا مجال لاتهام محمد أنه نقلها عن اليهود ، كما أنها لم تنشأ مبدئيا في بابل بسبب فيضانات الرافدين .

ومن ذلك قصة صلب المسيح عليه السلام وغسله خطيئة آدم بدمه وهي فكرة أساسية في الديانة المسيحية ، ولكن القرآن نفاها نفيا باتا صريحا ، فقال « **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم** » (١) ولم يكن لدى النبي محمد اذ ذاك أي مستند مادي يؤكد ، هذا النفي غير انه أوحي اليه ولكن الحفريات التي كانت تجري في وادي القمران كشفت عن بعض لفائف بها ما ينفي صلب المسيح ، ويؤكد ان الذي صلب شخص آخر ، ثم ذكر المستشرق سال Sale في

---

(١) سورة النساء الآية ١٥٧ .

ترجملته القرآنية أن بين الفرق المسيحية من ينفون صلب المسيح (١) .

ومن ذلك الرجفة التى أخذت قوم صالح – وهم قبيلة ثمود – والصيحة التى أخذت قوم عاد ، فقد أثبتت الكشوف الحديثة ان هذه الأماكن تعرضت فى مثل هذه التواريخ لرجات أرضية من تتابع الزلازل وثوران البراكين ، وعصف الرياح ، وذلك مصداق لما جاء فى القرآن الكريم .

---

(١) واجع ترجمة الآية « اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى » . وانظر تعليق سال عليها .

مناقشة جـولد تسيهر

أرنتس جولد تسيهر Goldseiher من كبـــار المستشرقين ، وقد حضر الى مصر وسمع محاضرات في الجامع الأزهر وله كتب قيمة عن الاسلام ما أظنه في واحد منها تخلى عن نزعته اليهودية ، أو استطاع أن يزيل من وعيه أن الاسلام من وضع محمد صلى الله عليه وسلم أو أن محمدا كان تلميـــذا لليهود ، وقد ترجمت مؤلفات تسيهر الى عدد من اللغات الأوروبية وغير الأوروبية ، وهو نفسه ألف بالفرنسية كما ألف بالألمانية ، وحاضر في جامعات شتى ، مما أتاح لكتـــابته انتشـــارا فأثرنا مناقشـــته على حـــدة وهو كغيره من المستشرقين ينقصه حذق اللغة العربية وهذا ما جعله وجعلهم يفسرون كثيرا من نصوص القرآن على غير وجهها لعجزهم عن فهم معانيها الحقيقية ، ثم له أغراض سيئة ضد الاسلام .

وأورد هنا بعضا من أخطائه ، ومنها ما جاء في تاريخ البشرية.

الاســلام والتجديد

قال : « ان الاسلام يكره التجديد ، وكل بدعة في نظر الجماعة الاسلامية هي موضع للشك والشـــبهة ، وظهورها مدعاة للاسى اذ انها تهدد وحدة الجماعة وتؤدى الى انهيار الشريعة » (١) .

ولم يبين مكان البدعة أو الفقرة المستحدثة ، أهي في الدين أم العلوم والأفكار ؟

أما في الدين وفي المعــاملات المبنية على قواعد دينية ، فهذا امر طبيعي لأن الاسلام لو اعتنق كل فكرة مستحدثة لا تقرها قواعده

---

(١) راجع النص في تاريخ الجنس البشرى ص ٥٤٥ ـ ج ٣ .

وأسسه ما بقى منه شىء ولا كان ثمت اسلام . كان الربا فاشيا فى الجاهلية فحرمه الاسلام ، وفى العصور الحديثة نشط التعامل بالربا وقامت عليه بنوك ومؤسسات ، ولو قبلها الاسلام ما استحق أن يسمى اسلاما ، بل كان أولى أن يسمى ردة ، اذ هذا التعامل هو ما منعه وقضى عليه . وشاع فى الحضارة الأوروبية اتخاذ الخليلات ، وقل أن توجد فتاة لا رفيق لها أو فتى لا رفيقة له ، وقد جاء فى القرآن الكريم ((**فانكحوهن باذن أهلهن وآتوهن اجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان**)) (١) . فهل يبيح علماء المسلمين لشعوبهم عادة نهى الاسلام عنها ؟ انهم أن فعلوا ذلك خرجوا عن الاسلام . وقل مثل هذا فى مظاهر التبرج بالزينة ، والرقص ، خصوصا المزدوج — فتى وفتاة ، وعرى النساء فى الحمامات المختلطة والشواطىء المشتركة ، وما الى هذه العادات ، فكل ذلك يحرمه الاسلام ، ولا ريب .

أما المبتكرات فى المعارف ومستكشفات العلوم ، فهذه يشجعها الاسلام ويدعو لها ، فالاسلام يدعو الى التفكير واعمال العقل — وفى القرآن الكريم ((**هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها**)) (٢) . ((**وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه**)) (٣) . ((**قل انظروا ماذا فى السموات والأرض**)) (٤) .

وهكذا آيات وأحاديث توضح أن الانسان سيد المخلوقات الأخرى بما منحه الله تعالى من قدرة على التفكير والبحث .

ومن وقت مبكر فى التاريخ الاسلامى بدأ المسلمون يضعون علومهم ويقعدون قواعدها ، وكل ناظر فى تاريخ العرب يجد أن

(١) سورة النساء : ٢٥ . وآراؤه هنا مما جاء فى هذا الكتاب .
(٢) سورة الملك : ١٥
(٣) سورة الجاثية الآية ١٣ .
(٤) سورة يونس : ١٠١ .

الاسلام وثب بهم وثبا ، ونقلهم فجأة الى حياة مليئة بالجدة وانهم نبذوا تقاليد وعادات ومظاهر اجتماعية قديمة ، وما كانوا ليعقلوا شيئا من ذلك لو تأخر ظهور الاسلام . وقد تقبل المسلمون كثيرا من مظاهر الحياة الفارسية والرومانية ، وكان معاوية يتصف فى دمشق بأبهة وجلال حتى وهو وال من قبل عمر بن الخطاب الخليفة الورع المتقشف (١) .

ومن الجديد الذى استفاده العرب درس الفلسفة والرياضيات والطب والكيمياء ، وقد برعوا فيها وأضافوا اليها ، فلما نقلوها الى الأوروبين كانت قد تطورت وامتدت امتدادا واسعا عما كانت عليه أيام اليونان والرومان ، فهم لم يكونوا مجرد نقلة ، بل كانوا باحثين ومجددين .

والكاتب يصف المسلمين فى الصفحة نفسها بأنهم انتحلوا من البلاد التى فتحوها نظما قضائية وادارية وان هذه النظم مستمدة من نظم شتى ، هى القانون الرومانى والفارسى والتلمود وقانون الكنائس الشرقية فاذا صح هذا فى نظره ، فليس هناك اذن جمود وتأخر ، ولا بأس على المسلمين فى استعارة هذه النظم مادام القانون الاسلامى هو الاساس الذى يجرون عليه .

بهذا نرى أنه عجب من العجب أن يقول الكاتب « وما من احد كان يرغب فى اسراع الخطى خشية ان يتهم بالزيغ والمروق » — فهذا كان يقتضى أن تظل حياة المسلمين على ما كانت عليه ، وهـذا غير صحيح .

---

(١) انظر فى العقد الفريد والكامل لابن الاثير موكب معاوية الفخم حين قابل عمر وهو ذاهب ليتسلم بيت المقدس .. وقال عمر لمعاوية : لا آمرك ولا أنهاك .

العمل على نشر الاسـلام

الذى يعرفه كل دارس للاسلام وتاريخه ـ ويعرفه أيضا جولد تسيهر ـ هو أن الفتوحات الاسلامية فى جملتها كانت تهدف الى نشر الاسلام والدعوة اليه ، كما أن الدعوة اليه وشرحه للناس من غير حروب ولا فتوحات كانت غرضا ساميا للمسلمين ، حقا ان الاسلام لم يكره الكتابيين على الدخول فى الاسلام ، وعاملهم معاملة غير معاملة الوثنيين ، ولكن المسلمين عناهم فى المقام الأول نشر دينهم وتفهيمه للناس . ، ولكن تسيهر يتحدث عن العهد الأموى، وهو عهد المظهر العربى والحكومة العربية ، فيقول « كان العرب فى هذا العهد من تاريخهم لا يبالون بنشر الاسلام بين رعاياهم ، بل كادوا يقاومون حركة هذا التحول الى الدين الجديد ومع ذلك فانهم تحت تأثير الثقافة الاسلامية بدأت أفكارهم تتجه نحو الفتح الرومى ، وأخذ الاسلام آنذاك ينتشر بخطوات حثيثة الى الحـد الذى آثار قلق الخلفاء ، فعملوا على تبطىء هذا التحول الى الاسلام خشية أن يؤدى ذلك الى اغراق العرب الخلص فى هذا الخضم من الشعوب الأعجمية .. » (١) .

وهذا عجيب جدا ، ولا يضير الاسلام فى شىء أن ينتشر تلقائيا على الرغم من ان حكام المسلمين كانوا يعملون على وقف نشره ، فهذا يدل على انه دين سمح ذو مميزات تستهوى قلوب الناس ، ولكننا نعارض هذا القول لانه ينافى الحقيقة ، فلا نعلم مرجعا تاريخيا ذكر ان حكام المسلمين فعلوا هذا ، فهم جميعا يعلمون ان الاسلام دين البشرية وان النبى محمدا العربى الجنس لم يرسل للعرب

---

(١) تاريخ الجنس البشرى ج ٣ ص ٥٤٥ .

وحدهم ، بل أرسل للناس جميعا ، وفى القرآن : **« قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » (١) وفيه « وما ارسلناك الا كافة للناس .. » (٢) .**

وفى عهد بنى أمية وفى عهد الخلفاء كان يرسل لكل قطر قضاته ومعلموه ، وكان هناك الوعاظ والقصاص يجلسون للناس فى المساجد وعملهم تعليم وتبشير .

أما انهم قاوموا حركة الدعوة فهذا أمر غريب لم يعلم به أحد ، ولا يوجد مرجع له . وكان الفتح الاسلامى فتحا منظما يسير فيه القراء والقانونيون مع الجند الفاتحين (٣) ، ولا نعلم فى التاريخ كله فتوحات كانت علمية وثقافية غير فتوح الاسكندر المقدونى ، وفتوح الاسلام ، والثقافة التى بثها الاسكندر فى الشرق تعتبر شيئا ضئيلا بجانب ما بث المسلمون من فكر علمى ومبادىء أخلاقية وقوانين اجتماع ، ثم ان تعاليم الاسكندر ذهبت جميعا وبقيت قوانين الاسلام .

وقد ظل هذا الفكر يمتد ويقبل عليه الناس ، حتى اننا نجد قبائل البربر فى شمال افريقية يستعصون على الرومان زمنا طويلا حتى اذا ما أشرق بينهم نور الاسلام اهتدت به قلوبهم واخلصوا له ، ونجد منهم أول غزاة للاندلس مع القائد طارق بن زياد الذى كان أيضا من البربر ، كما كان طريف أول رائد لهذا الغزو من البربر أيضا .

واذن فقد كانت دعوة الاسلام دعوة ايجابية فعالة ، ولم يقصر الخلفاء ولا القادة فى الدعوة اليه ، فهذه الفتوحات التى ذكرنا كانت فى العهد الأموى الذى اتهم الكاتب خلفاء بالتقصير فيها .

---

(١) سورة الاعراف الآية .

(٢) سورة سبأ الآية ٢٨ .

(٣) ضحى الاسلام ١/٥٨٨

الشـــورى فى الاســـلام

الشورى فى الاسلام أمر أساسى لكل ما لم يرد فيه نص قرآنى أو أثر نبوى ، وقد أمر الله النبى بالمشاورة اذ قال : **فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ..** (١) وفى القرآن سورة تسمى سورة الشورى وفيهـــا يثنى الله على المؤمنين الخلص بأنهـــم **« استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وامرهم شورى بينهم »** (٢) .

وكان النبى يشاور أصحابه فيما لا نص فيه ، ويوم بدر أنزل المسلمين منزلا لم يرضه بعض أصحابه فسألوا ان كان نزوله أمرا من الله أم رأيا من عنده ، فلما علموا أنه رأيه اقترحوا مكانا آخر (٣) فاستجاب لهم ، ثم نجده بعد المعركة يستشيرهم فى شأن الأسرى ، وكان عمر بن الخطاب من مستشارى أبى بكر ، وقد استأذن اسامة ابن زيد أن يبقيه معه اذ خرج زيد غازيا ، كما كان يستشير عبد الرحمن ابن عوف وعثمان وعليا ، وفى الأمور الجامعة كانوا يدعون « الصلاة جامعة » فيحضر الناس جميعا الى المسجد ثم تعرض المسائل على ملأ منهم ، وكانت الوفود تفد على الخليفـــة أو الحـــاكم فيعرفون ما لديه ثم يكون هناك تشـــاور فى حل مشكلتهم حلا يتناسب مع العرف الاسلامى ، وما هو أنسب الى القرآن .

ولم يكن اختلاف المسلمين وتشعب آرائهم فى الخلافة الا نتيجة الشورى والديمقراطية الواسعة فى معالجة الأمور .

---

(١) سوره آل عمران الآية ١٥٩ .

(٢) سورة الشورى الآية ٣٨ .

(٣) سيرة بن هشام جـ ٣ ٢٥٩ ت محيى الدين ط دار الفكر .

وظل الأمر كذلك حتى حين أفضت الخلافة الى بنى أمية وجعلوها ملكا عضوضا اذ ظل المسجد دار الشورى ، وظلت الوفود على ما كانت عليه ، وفى عهد بنى العباس ظهر نوع من الاستبداد على يد الأتراك الذين تحكموا فى الخلفاء أنفسهم . وهذا شىء خارج عن نطاق الاسلام .

فالشورى مبدا من مبادىء الاسلام لا يمكن انكاره .

طبيعة الدعــوة الاســلامية

الاسلام دين التوحيد المطلق ، فالله سبحانه وتعالى خالق الكون كله وكل شيء فى هذه الحياة خاضع لارادته وقدرته ، وهو واحد فى ذاته ليس له جسم ولا هو ذو تركيب من أعضاء ، ولا يمكن أن يحيط به الظن أو يدركه الخيال ، لأن الانسان يتخيل وفق ما تدرك حواسه، والله سبحانه ((**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**)) (١) . وهو أيضا ((**ليس كمثله شيء**)) (٢) .

بهذا يختلف الاسلام عن المسيحية اختلافا واضحا ويختلف عن اليهودية . فالمسيحية تدين بالتثليث وتنسب لله تعــالى أبناء وقد ناقشها القرآن كثيرا ونفى أن يكون لله أبناء أو شركاء . . ((**قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد** (٣))) . ((**أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة**)) (٤) ، ((**او كان فيهما آلهــة الا الله لفسدتا**)) (٥) .

اما اليهودية فقد اعتبرت يهوه اله اليهود وحدهم ، فكانت بذلك أدنى الى تعدد الآلهة ، لأن الأمم الأخرى لها آلهة غير يهوه .

وكلمة الاسلام تعنى الخضوع المطلق لله سبحانه تعالى ، وهى بهذا المعنى ديانة ابراهيم عليه السلام وديانة الأنبياء الســابقين جميعا . وفى القرآن الكريم :

---

(١) سورة الانعام الآية ١٠٣ .

(٢) سورى الشورى ١١/٤٢ .

(٣) سورة الاخلاص .

(٤) سورة الانعام الآية ١٠١ .

(٥) سورة الانبياء الآية : ٢٢ .

« ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين ، اذ قال له ربه اسلم قال أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون » (١) .

فالاسلام هنا يعنى الخضوع لله تعالى والانقياد لأوامره .

ودعوة النبى محمد صلى الله عليه وسلم الى عبادة الله وحده ليست دعوة مستحدثة ولكنها كانت رسالة الانبياء جميعا **« ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك »** (٣) ، واذن فرسالة الأنبياء جميعا هى الدعوة للتوحيد . وهذا الشعور بين المسلمين هو الذى يزيل عنهم نزعة التعصب ، ويجعلهم يعتبرون الكتابيين اخوة لهم وقد تختلف دعوات الأنبياء ، فى قوانين التشريع من المعاملات والمواريث . وغيرها ، ولكنها لا تختلف فى دعوة التوحيد .

ومحمد صلى الله عليه وسلم ككل الأنبياء ، بشر تلقى وحيا من الله تعالى وهو صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، وبرسالته انتهت رسالات السماء ، ورسالته عامة خالدة . كان كل نبى قد أرسل لأمة معينة ، ولزمن محدود ، ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم ، أرسل للناس كافة ، ورسالته باقية الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن عقيدة الاسلام أن الناس يحيون بعد موتهم ، ويحاسبون يوم القيامة على كل عمل عملوه فى هذه الحياة الدنيا ، حتى ولو كان شيئا هينا ، **« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (٢) .**

---

(١) البقرة : ١٣٠ ـ ١٣٢ .

(٢) سورة فصلت الآية ٤٣ .

(٣) سورة الزلزلة : ٧ ، ٨

هذا مجمل العقيدة الاسلامية .

والاسلام عقيدة وعبادة وتشريع .

والعبادة ــ من العبودية والاستسلام ، وهى تعنى تعظيم الله تعالى واجلاله كما تعنى الخضوع والانقياد له ، وكما فى جميع الديانات قد توجد فى العبادة أشياء لا نعرف لهـــا سببا ولا علة تشريع ، ولكن هــذا معنى العبودية ، فلو كانت كل عبادة لهـــا فائدتها الجســـدية أو الاجتماعية ، أو المادية أيا كانت ، ما كان هناك معنى للعبودية ، اذ يكون أداؤها لهذا الغرض المادى ، وكثيرا ما يترتب على العبادات فوائد مادية ولكنها ليست روح العبادة ، وانما روحهـا طاعة الله والانقياد لأوامره . ولعله لهـــذا السبب وجدت أشياء لا يدرك الناس لها أية علة ، فعلى سبيل المثال :

الوضوء طهارة ، ومن الحسن المقبول الا يقف الانسان بين يدى ربه الا وهو متطهر ، ولكن لماذا ينتقض وضوؤه اذا خرجت بعض الغازات من بطنه ، لماذا تفسد صلاته اذا زاد فيها ركعة ؟ لماذا لا يجوز الوضوء بصابون أو ماء معطر ، والمسلمون يحجون فيطوفون بالكعبة لأنها بيت الله ورمز لوحدة المسلمين ولكنهم يؤدون أعمالا كثيرة تعبدية ، يرمون الجمرات ويقبلون الحجر الأسود وهم لا يعبدون الحجر ولا يعبدون الكعبة ، وانما يعبدون رب الحجر ورب الكعبة ، وقد قال عمر وهو يستلم الحجر : اللهم انى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا انى رأيت رسول الله يفعل ذلك ما فعلته .

وليس هذا خاصا بالدين الاسلامى ولكنه فى جميع الديانات .

والعبادات فى الاسلام هى الصلاة ، وهى خمس صلوات فى اليوم والليلة معلومة الأوقات ، واخراج نصيب من المال زكاة للفقراء او لبيت المال ، ويختلف مقدار هذا النصيب باختلاف المـال ونوعه ومقداره . وصيام رمضان من كل عام . وحج بيت الله الحرام مرة واحدة فى العمر .

وبعد هذا القسم تأتى المعاملات .

وهى قوانين الحياة وطرق الاتصال بالناس أفرادا وجماعات ، وفى الاسلام شريعة شاملة بها قوانين مفصلة دقيقة من المواريث وشئون الأسرة وقواعد التعامل من البيوع والايجارات والشركات والمضاربات والمزارعة وأدب القضاء الى غير ذلك من الشئون .

ووضع الفقهاء لذلك أحكاما خاصة هى :

١ ـ الفرض وهو الواجب الذى لا بد أن يعمله الشخص ، وبتركه يستحق عقوبة .

٢ ـ السنة وهى ما يفعله الشخص اقتداء برسول الله ، ولا عقوبة عليه فى تركه لها .

٣ ـ المستحب ، وهو أقل درجة من السنة ، ويؤديه الشخص رغبة فى زيادة أعماله الحسنة وتكفيرا عن صغائر ذنوبه .

٤ ـ الحرام ، ويقابل الفرض ، وهو ما يعاقب الشخص على عمله .

٥ ـ المكروه وهو ما ينبغى أن يتركه الشخص ، وعقوبة ارتكابه ليست محددة ولكنها أخف من عقوبة الحرام .

والعبادات كلها توقيفية لا يجوز للشخص أن يؤديها الا حسبما وردت عن رسول الله ، . اما المعاملات فالأصل فيها الاباحة لا يمنع منها الا ما منعه الشرع ، والعمل الواحد قد يكون مباحا لشخص ومحرما على شخص آخر ، فالتدخين مثلا يباح لمن يريد أو يستمتع به فاذا كان فقيرا يحتاج لثمن مايدخنه لطعامه وطعام أولاده ، كان التدخين حراما بالنسبة له وكذلك اذا كان التدخين مما يضر بصحته

فهذه الأحكام ذات مرونة وهى تراعى مصالح الناس .

اما التشابه بين الاسلام والديانات الأخرى فلا يعنى انه نقل منها الا عند من لا يؤمنون بالديانات وينكرون الوحى ووجود الله ،

القــرآن

القرآن هو كتاب الله الذى أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ــ والكلمة فى الأصل مصدر قرأ ، ثم أصبحت علما على هذا الكتاب . وهو كلام الله تعالى أوحاه الى نبيه بواسطة جبريل عليه السلام .

نزل هذا القرآن مفرقا حسب الحوادث ، وظلت آياته تتنزل على رسول الله طوال ثلاثة وعشرين عاما ، أوحيت أول آياته اليه وهو فى سن الأربعين وظلت تتوالى عليه حتى انتقل الى جوار ربه وهو فى الثالثة والستين .

والقرآن الذى نزل قبل هجرة النبى الى المدينة يسمى القرآن المكى والذى نزل بعد الهجرة يسمى القرآن المدنى سواء كان نزوله بالمدينة أو بغير المدينة .

والقرآن المكى شديد التركيز على دعوة التوحيد ، يجادل المشركين ويحط من شأن آلهتهم ، ولكنه يعتمد على الحوار المنطقى ويدعو الخصوم الى التفكير واعمال العقل .

« ان الذين تدعون من دون الله عبــاد أمثـالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون (١) » .

« ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يســتنقذوه منه ، ضعف الطــالب والمطلوب (٢) » .

---

(١) سورة الاعراف ، الآيات ١٩٤ ــ ١٩٥ .

(٢) سورة الحج / ٧٣ .

ومن أساليبه الشائعة أن يدعو الى التأمل فى ملكوت السموات والأرض والتأمل فيما يطرأ علـى الكائنات من تغير ، وما تخضع له من نواميس ، وهو بهذا يعتمد على الاقناع العقلي ، ولا يجنح الى اثارة العواطف ، ومن ذلك قول الله تعالى :

((أولم ينظروا فى ملكوت السـموات والأرض وما خلق الله من شيء (١))) . ((أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى .. (٢))) .

((أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقـون)) (٣) .
((أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما .))

((افرأيتم المـاء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا)) .

((افرأيتم النار التى تورون ، أأنتم انشـأتم شجرتها أم نحن المنشئون)) .

وينتقل من هذا التأمل الى انذار المشركين بما يسببه لهم عصيانهم من كوارث فى الدنيا وعذاب فى الآخرة ، ويستشهد على تهديده بما أصاب الأمم السابقة بسبب عصيانهم الرسل الذين دعوهم لعبادة الله وحده ، وكرر القرآن قصص الأنبياء السابقين وما أصاب أممهم .

وأسلوب القرآن المكى أسلوب قوى عنيف يختار العبـارات الموحية والألفاظ القوية ، وعباراته التهديدية رهيبة مؤثرة ، أما

---

(١) سورة الاعراف الاية ١٨٥ .

(٢) سورة الروم الاية / ٨ .

(٣) سورة الوقعة الايات ٥٨ وما بعدها .

أسلوبه القصصى ففيه لين فى سرد الحوادث ، ولكن العبارات التى يعقب بها ذات رصانة وايجاز وقوة .

واستلزمت هذه الدعوة أن يتناول القرآن آلهـة المشركين ــ من أصنام وكواكب وغيرها بالزراية والاستخفاف ، من مثل قوله :

« مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » (١) .

ولكن دائما يوقظ العقل للتفكير وينهى عن التقليد الأعمى والتمسك بما كان عليه السابقون من نظر فيه .

وكما جادل المشركين جادل ذوى الديانات الأخرى من اليهود والنصارى والصابئة والمجوس .

أنكر عـلى اليهـود قولهم « عزيرا » ابن الله كما أنكر أن يكون المسيح ابن الله .

« وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل »(٢) .

ويدعو الصابئة والمجوس الى ترك عبـادة الكواكب والى عبادة الله خالق الكواكب وغير الكواكب .

« ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسـجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ، ان كنتم اياه تعبدون ، فان استكبروا فالذين عند ربك يسـبحونه بالليل والنهـار وهم لا يسأمون » (٣) .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤١ .

(٢) سورة التوبة الاية ٢٩ .

(٣) سورة فصلت الآية ٣٨ .

اما القرآن المدنى فقد احتوى كل مسائل التشريع الاسلامى من العبادات والمعاملات وشئون الأسرة ، كما نص على آداب اجتماعية كثيرة من حسن التخاطب والاستئذان عند الدخول واختيار أوقات الزيارة ، والبر بالوالدين ، والاحسان الى الضعاف واليتامى ، وتعكس هذه التعاليم الاجتماعية ما كان عليه العرب من تأخر وبعد عن المدنية قبل ظهور الاسلام ، كما تنبىء عما للاسلام من فضل فى انهاض هؤلاء المتخلفين ، وهو وحده كاف فى الدلالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن هو نفسه عربى نشأ بين هؤلاء الذين علمهم ، وما كان تاريخه يؤهله لمثل هذا التشريع الواسع والأدب الرفيع ، وهو لم يخرج من بلده ليتعلم فى جامعة أو يستقى مبادىء فلسفة وقوانين رقى وحضارة ، فمن أين ذلك التعليم ؟

أما بقاء القرآن الكريم وعدم ضياع شىء منه أو تغيير أى كلمة فيه فهذا أمر مكفول ، لأن القرآن حفظ بدقة منذ نزوله ومن ميزات الرسول صلى الله عليه وسلم انه كان لا ينسى شيئا مما يوحى اليه ، وفى القرآن الكريم «**سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء الله**» (١) وفيه «**انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون**» (٢)

وكان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه شىء من القرآن الكريم أن يقرأه على أصحبه وكان يقرأ بتؤدة ووضوح ثم يقرئهم ما قرأ عليهم ويشرح لهم اهم معانيه الاجمالية ، ثم يأمرهم بكتابته ، ومع فشو الأمية فى هذا الوقت كان حوله عدد من أصحابه يجيدون القراءة والكتابة ، ويعرفون بكتاب الوحى . وعندما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن كله مكتوبا ، ولكن لم

---

(١) سورة الاعلى ٦ ، ٧ .

(٢) سورة الحجر ٩/١٥ .

يكن مجموعا فى نسخة واحدة (١) وكان هناك عدد كبير من الصحابة يحفظون القرآن كله فى صدورهم .

والقرآن فى جملته نزل بلغة قريش ، ولكن جاءت فيه كلمات من لهجات أخرى ، كما انه لم ينزل بوجه واحد بل نزل بعدة أوجه (٢) وذلك تخفيفا على العرب وهم مختلفون اللهجات حتى يستطيع كل واحد أن يقرأه ، وسمع عمر بن الخطاب هشام بن حكيم ابن حزام يقرأ فى الصلاة على غير ما حفظ عمر فكاد يأخذ بتلابيبه ، ولكنه تريث حتى فرغ من صلاته ، ثم ذهب به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لحكيم اقرأ فقرأ فقال له هكذا أنزلت ، ثم قال لعمر اقرأ فقرأ ، فقال هكذا أنزلت (٣) .

وقد فهم جولد زيهر ان اختلاف القراءات يرجع الى ما كانت عليه الكتابة من عدم النقط والشكل (٤) فكانت تلتبس الكلمات على القارىء ، من مثل « فتبينوا » و .. « فتثبتوا » ومثل «تستكبرون» و « تستكثرون » . وهو فهم خاطىء بين الخطأ ، لأن هذه القراءات كانت موجودة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واقرأ أصحابه القرآن بوجوه متعددة ، ومن الروايات التى رويت عنه كانت القراءات . ثم ان العرب ـ وهم أميون ـ لم يكونوا يعتمدون على القراءة وانما كانوا يعتمدون على التلقين والحفظ (٣)

وفى موقعة اليمامة بين أبى بكر ومسيلمة قتل نحو سبعين رجلا من حفاظ القرآن الكريم ، وهذا يرى انه كان هناك كثيرون من الصحابة يحفظون القرآن الكريم .

---

(١) الاتقــان ١/٥٧ .

(٢) فى الحديث : ان هذا القرآن نزل على سبعة أوجه كلها شاف كاف فاقرأوا منه بما استطعتم .

(٣) الاتقـان ١/٨٧ ط بيروت .

(٤) مذاهب التفسير الاسلامى ص ٨ ، ٩ .

(٥) راجع فى الصفحات التالية من المرجع نفســـه ردودا للمترجم على جولدزيهر

وقد خشى عمر وأبو بكر أن يستحر القتل بالقراء فى مواطن أخرى ، فأجمعا على جمعه فى مصحف واحد ، وقد عهد بجمعه الى زيد بن ثابت ، فقد كان شابا عاقلا أمينا ، وكان من حفاظ القرآن ، وكان لا يكتب من حفظه ، ولا مما هو مكتوب ، بل لا بد من شهادة شخصين آخرين ، وكان الذين كتبوا القرآن قد كتبوه على الاحجار وعظام الأكتاف وقطع الأشجار ، لعدم توفر الورق لديهم ، ومضى زيد يجمعه ، وكان عمله شاقا ، اذ كان عليه أن يطوف على الذين كتبوا ليسمع ما عندهم ، ولا يكتفى بشخص واحد ولا بحفظه وكان هو يحفظه ، وقد وجده مكتوبا وتوفر له الشهود الا آية واحدة هى آخر سورة التوبة ، وهى قوله تعالى : ((**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ، فان تولوا فقل حسبى الله ، لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم**)) فلم يجدها مكتوبة الا عند أبى خزيمة الأنصارى ، فقال أبو بكر اكتبوها ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل شهادته بشهادة رجلين (١) .

وجمعت هذه الصحف التى وعت القرآن كله وسميت مصحفا . ومنها نرى ان القرآن جمع كله عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهور وانه جمع كله لم يغب منه شىء ، وان جمعه كان بشهادة عدلين على الأقل عدا زيد بن ثابت .

وقد رأينا من قبل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأ أصحابه بوجوه متعددة ، وليس بوجه واحد .

وفى عهد عثمان كثر اختلاف الناس فى وجوه القراءة ، حتى اقتتل الغلمان والمعلمون ، على نحو ما حدث بين عمر بن الخطاب

---

(١) الاتقان ١/٥٨

هشام بن حكيم ، فقال عثمان : عندى تكذبون به وتلحنون فيه (١) فمن نأى عنى كان أشد تكذيبا وأكثر لحنا ، يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس اماما . فاجتمع اثنا عشر ﻫ حابيا فيهم زيد بن ثابت صاحب الجمع الأول وكتبوا للناس اماما ، وحفظت منه صورة فى المدينة ، ووزعت صور فى الأمصار ليرجع الناس اليها اذا اختلفوا .

والقرآن الذى تقرؤه الآن هو القرآن الذى قرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، وأملاه على كتاب وحيه ، لم يضع منه شيء ولم يزد عليه شيء .

اما القراءات التى تقرأ ويختلف بعضها عن بعض ، فهى روايات رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . كل صاحب قراءة انتهت اليه رواية اطمأن اليها وتثبت منها فأخذ بها ، واشتهرت منها روايات سبع تليها ثلاث أقل منها قوة ، ثم اربعة أخرى أقل من سابقتها ، فهى أربع عشرة رواية ، وما فوقها يعتبر شاذا لا يؤخذ به .

وقد تمسك جلدزيهر بروايات شاذة أوردها دليلا على ما وهمه من أن القراءات نشأت عن طريقة الكتابة وعدم نقطها (٢) ، والروايات التى أثبتها ـ ومنها ما ذكرناه ـ ليس منها واحدة من القراءات العشر ، وبعضها مما فوق الرابعة عشرة .

ويفيد اختلاف القراءات فى فهم معان فرعية ، وتوجيه بعض المعاني وجهة جديدة ، ومنها استفاد الفقهاء المجتهدون فى استنباط أحكام فقهية مختلفة ، وهذه الاختلافات اكسبت الفقه الاسلامى مرونة واسعة ، وكل ذلك جائز مستساغ ما دامت الرواية صحيحة

---

(١) يريد يكذب بعضكم بعضا وينسبه الى اللحن .

(٢) انظر مذاهب التفسير الاسلام ص ٩ ، ١٠ ، ورد المترجم على هذه الروايات .

ومن ذلك الآية الكريمة « .. **وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النســـاء فلم تجدوا ماء فتيمموا .. »** (١) .

فقد قرئت « لامستم » ، بمعنى خالطتم النســـاء مخالطة جنسية ، كما قرئت «لمستم» من اللمس بمعنى مسستم أجسادهن ولهذا رأى بعض الفقهاء أن مجرد مس جسم المراة الأجنبية بقصد اللذة أو وجدانها مما يوجب الوضوء ، ولم ير آخرون ذلك ، وقد كتبت الآية بلام دون ألف « لمستم » وهى بهذا تصلح لكلتا القراءتين وكذلك تكتب الصلاة بواو « الصلوة » مراعاة للرواية التى تفخم اللام ؛ واذن فكتابة المصاحف هى التى تأثرت بروايات القرآن وليست الرواية هى التى تأثرت بالكتابة .

والقرآن هو الكتاب السماوى الوحيـــد الذى حافظ على كيانه وسلم من التغيير والتبديل ، أما توراة موسى . وهى الأســـفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس ، فقد ذهبت ولم يبق منهـــا ما يعتمد عليه ويرجح الباحثون أنه لم يبق منها شيء أصلا الا أن تكون الوصايا العشر ، ولكن ترتيبها لا يطمأن اليه ، لأنها وردت مكررة بترتيب مختلف ، وبزيادة ونقص (٢) .

وكذلك كلمات السيد المسيح عليه السلام ، ذهب معظمهـــا وجاء فى الأناجيل الأربعة بعض منها .

ونحن المسلمين نعتقد انه ــ عليه السلام ــ تلقى كتابا سماويا من الله هو الانجيل ، وهذا لا يعتقده المسيحيون ، لأنهم ــ على غير

---

(١) سورة النساء ٤/٤٣ ، وسورة المائدة ٥/٩ .

(٢) انظر هذا البحث فى التوراة لفـــؤاد على ، وهو فى محاضرات الدكتـــور N. Turner عن اليهودية .

ما يرى المسلمون - يجعلون المسيح ابن الله ، فهو نفسه اله ولا يتلقى وحيا من غيره .

وقد تكون كلماته التى جاءت فى الأناجيل الموجودة الآن مأخوذة أو على الأصح كثير منها مأخوذ من الانجيل السموى ، وعلى أى لم يكتب حواريو المسيح عنه شيئا ولم يأمرهم بكتابة كلامه ، ولا كانوا هم على حظ من الثقافة يجعلهم يفهمون جيدا أمثاله وتشبيهاته ، لذلك ضاع معظم كلامه . واذن فالاسلام هو الديانة السموية الوحيدة التى تملك دليلها ومعجزتها ، فهى خاتمة الديانات ، ورسالة الله الى البشر كافة .

● المعجزة الخالدة :

يعتمد الاسلام على القرآن وحده معجزة دالة على صدق النبى محمد صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه ، ولا يعتمد على معجزة ما مادية . فالقرآن كلام الله ، تحدى محمد العرب أن يأتوا بمثله فعجزوا ((**فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين (١)**)) ((**وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله**)) (٢) ((**قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (٣)**)) ((**أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعو من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين**)) (٤)

ولم يجرؤ أحدعلى هذا التحدى أن ينشىء قرآنا يثبت به أن محمدا ليس نبيا هذا والقوم فى عصر البلاغة - وسلامة اللغة ، وفيهم الشعراء والخطباء ، ومن أثرت عنهم الحكم والأمثال ، فلم

---

(١) سورة الطور الآية ٣٤ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٣ .
(٣) سورة الاسراء الآية ٨٨ .
(٤) سورة يونس الآية ٣٨ .

يبق الا أنه كلام الله وليس كلام البشر ، وظل القرآن يتحدى على مر العصور ، فلمن شاء أن يبطل هذه الرسالة أن ينشىء كثيرا أو قليلا من مثل هذا الكلام . ولكن للان لم يحـــدث هذا . واذن فمعجزة محمد التى تحدى بها العرب فى عصره لا تزال باقية تتحدى الأجيال .

وهذا فرق ما بين القرآن والمعجزة المادية . فالمعجزة المادية ينفعل بها من يراها ، فاذا نقلت لمن لم يرها كانت أقل وقعا ، ثم تكون بمدرجة الشك والأنكار .

كان لكل نبى قبل محمـــد معجـــزة مادية . ولعل موسى عليـــه السلام كان أكثر الأنبياء معجزات ، كان يدخـــل يده فى جيبه ثم يخرجها فاذاهى بيضاء مشعة كالقمر المضىء ، وكانت له عصاه ألقاها فاذا هى قد تحولت ثعبانا يلقف ما يأفك سحرة فرعون ، وهى التى شقت له طريقا فى البحر يبسا وشجت له عيونا سفحا فى الحجارة ، وأنزل الله على قومه المن والسلوى ، وظلهم بالغمام ، وكان لعيسى معجزات أشد غرابة وأدعى الى تصديقه لأنه كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى ، وينبىء الناس بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرا (١) ، وهكذا ، ومع كل هذه المعجزات كذبه قومه وطلبوا أن يصلب .

وكان للانبياء السابقين معجزاتهم أيضا ، كان لصالح ناقه تدر من اللبن ما يكفى قومه ، فلم تجعلهم يتبعونه بل عقروها وعتوا عن أمر ربهم ، فأخـــذتهم الرجفة ، وهود وشعيب ولوط ونوح وغيرهم .. كل هؤلاء كانت لهم معجزات مادية .. وكل هـــذه المعجزات كذب بها الذين لم يشهدوها ، وينكرها الآن كثيرون ، ويعدها الآخرون خرافة ، ونحن المسلمين نؤمن بها لأنها جاءت فى القرآن الكريم .

---

(١) جاءت هذه المعجزة فى القرآن ولم تذكرها الأناجيل .

واذن فالقرآن الذى لا يمكن أن ينكره أحد شاهد على صدق النبى محمد كما هو شاهد على صدق الأنبياء السابقين ، وكما يقول الله تعالى ((**وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه (١)))** .

تطرق الشك والانكار الى المعجزات المادية ولم يتطرق الى القرآن لأنه معجزة معنوية . وقد كان للنبى محمد صلى الله عليه وسلم أيضاً معجزات مادية كثيرة ولكن الاسلام لا يعتمد عليها فى اثبات رسالته ، وانما يعتمد على القرآن وحده لأنه معجزة خالدة نشهدها نحن الآن كما شهدها الذين أنزل القرآن فيهم لم تغب منه كلمة ولم تضم اليه أخرى ، وكما جاء فيه ((**انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)) (٢)** ــ وجاء أيضا : ((**وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث)) (٣)** .

وقد طالب العرب محمدا بمعجزات مادية فلم يلتفت اليهم ، بل أخبرهم أنه بشر مرسل ، وان المعجزات المادية من قبله لم تقنع الذين شهدوها وليست من شأن الرسالة الخالدة التى تشهدها أجيال مقبلة وحكى عنهم القرآن :

((وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا)) (٤) .

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٨ .
(٢) سورة الحجر الآية ٩ .
(٣) سورة الاسراء الآية ١٠٩ .
(٤) الاسراء الآية ٩٠ ــ ٩٣ .

« وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ، او يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها » (١) .

ورد القرآن هذا كله بعبارة صريحة .

« وما منعنا أن نرسل بالآيات الا ان كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ــ وما نرسل بالآيات الا تخويفا » (٢)

فهذه المعجزات كانت تخويفا وارهابا ــ والقرآن لا يعتمد على ذلك .

والفرق بين رسالة النبى محمد ورسالة الذين سبقوه ، ان رسالته خالدة ، وانه رسول الله الى الناس جميعا على مختلف أجناسهم وأعصارهم ، وهو لا يرضى التقليد وانما يقنع العقل ، واذن فلا بد لكل من يدخل الاسلام أو يناقش رسالته أن يشهد معجزته ؛ أما الذين جاءوا قبله فكانت رسالاتهم موقوتة ، لقوم معينين ولزمن معين ، فكانت المعجزة المادية تكفى لهذا الزمن المحدود ، يراها قوم وينفعل بها الجيل الذى يليهم ، ثم يأتى نبى آخر أو تكون فترة لا رسالة فيها ولا مسئولية . أما الرسالة المحمدية فهى رسالة عامة خالدة ولهذا كانت معجزة صاحبها خالدة ، لأنه رسول الله الى الناس جميعا ولا نبى بعده .

فالقرآن معجزة خالدة لرسالة خالدة .

ودراسته تنفى أن يكون شىء منه من كلام البشر .

والموازنة بينه وبين الأحاديث النبوية تؤكد أن النبى محمدا صلى الله عليه وسلم لا قدرة له على الاتيان بقرآن مثله .

وما فيه من تشريع دينى واجتماعى وسياسى وقوانين معاملات

---

(١) سورة الفرقان الآية ٧ ، ٨ .

(٢) سورة الاسراء الآية ٥٩ .

وشئون أسرة وعلاقات خارجية ونظام حروب .. لا يمكن أن يقوم به فرد واحد مهما كانت دراسته .

وقد كانت المدة التى ظهرت فيها هذه التشريعات قصيرة ، اذ هى لم يبدأ ظهورها الا فى السنة الثانية من الهجرة ، فهى مدة أقل من تسعة أعوام ، وهى لا تكفى للدراسة والتفكير ثم تأليف هذه الموسوعة الشاملة .

وهذه الأعوام كانت مليئة بالحروب والمناوشات مما لم يدع للنبى صلى الله عليه وسلم متسعا من الوقت يؤلف فيه ، وهو فوق كل هذا أمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولم تكن لديه مكتبة يرجع اليها ولا معه معلمون يتلقى عنهم .

فهذا جانب آخر من جوانب اعجاز القرآن العديدة .

أضف الى ذلك اخبار القرآن بأقاصيص الأمم السابقة ، وانباؤه بحوادث مستقبلة ، ثم نجده يحدثنا عن خواطر أنفسنا ونوازع خواطر وغرائزنا مما لم نهتد اليه الا فى ضوء علم النفس الحديث ، وقد ألفت كتب عديدة لدرس الاعجاز القرآنى ولا يزال الباحثون يجدون فى هذا الدرس ويجدون جوانب شتى لهذا الاعجاز ، وبعض هذه البحوث علمى بحت وبعضها فلسفى أو أدبى أو تربوى أو اجتماعى وهكذا .

● هل هو صورة تلمودية ؟

قلما تحدث مستشرق عن القرآن فأغفل أنه مستقى من اليهودية ، وقد وصف تايلور الاسلام بأنه يهودية مهذبة (١) ، وقال جيوم ان محمدا كان تلميذا مبتدئا فى دراسة التلمود ولم يستطع فهمه جيدا (٢) .

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٩٠ .

(٢) راجع فى كتاب Legacy of Israel فصلا بعنوان The Influence of Judaesm on Islam.

والذى دعا الى هذه الفكرة هو ان القرآن ذكر كثيرا من قصص أنبياء بنى اسرائيل ، وأورد قصة موسى مع فرعون مصر فى عدد من سوره كما ذكر معجزاته وعناد قومه له ومكثهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض الى أقاصيص أخرى لداود وسليمان وطالوت

فظن هؤلاء أن محمدا استقى هذه المعلومات من اليهود ، ولكن القرآن لم يقف عند هذه الآثار اليهودية ، بل تحدث أيضا عن المسيح عيسى بن مريم ، وأورد أشياء كثيرة أيضا من العهد الجديد ، وهو فى شأن عيسى عليه السلام خالف اليهود والنصارى جميعا ، فعلى عكس ما يعتقد اليهود أثبت انه ليس ابنا ليوسف النجار ، وقال انه ولد من روح الله وليس له أب ، وأزرى على اليهود فى هذا ولعنهم، فقال : « .. وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما » (١) وذلك أنهم اتهموها بارتكاب الفاحشة وأن عيسى جاء من سفاح ، والقرآن يسميه دائما عيسى بن مريم ، لأنه لا أب له ، وعلى عكس ما يعتقد المسيحيون نفى أنه ابن الله وقال : **« ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه** (٢) وقال : **« انى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة (٣) كما قال « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » (٤)** ، كما نفى ان يكون قد صلب ، فقال : **« وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم .. » (٥)** . وبهذا نجد القرآن يعارض المسيحية فى أهم ما قامت عليه وهو جعل المسيح ابن الله ، وانه صلب ليمحو بدمه خطيئة آدم ، وقرر أن ولادته من غير اب لا تقتضى أن يكون الها ،

---

(١) سورة النساء ١٥٦/٤ .

(٢) سورة مريم ٣٥/١٩ .

(٣) سورة الانعام ١٠١/٦ .

(٤) سورة المؤمنون ٩١/٢٣ .

(٥) سورة النساء ١٥٧/٤ .

اذ أن آدم وهو أبو البشر جميعا خلق من غير أب ومن غير أم . **« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون .. » (١) .**

ولم يذكر القرآن جميع الأنبياء الذين جاءوا فى العهد القديم ولا الرسل الذين جاءوا فى العهد الجديد ، كذلك لا يوجد فى الكتاب المقدس كل الأنبياء الذين ذكروا فى القرآن الكريم ، فالكتاب المقدس تاريخ أسرة معينة ، هى أسرة بنى اسرائيل واختص بهم العهد القديم . والعهد الجديد أيضا تاريخ للمسيح وللدعوة المسيحية من بعده ، والقرآن ذكر ما ذكر من هؤلاء ، على سبيل العظة والاعتبار ، لا على أنه تاريخ أمة أو تاريخ أفراد أو دعوات ، وليس فى أى من العهدين ذكر لصالح وثمود ، ولا لهود مع عاد ، وجاء ذكر شعيب عرضا ، اذ هو صهر لموسى ، ووصفته الشروح بأنه كاهن كان قد تلقى شيئا من علوم المصريين وانه علم موسى . (٢) ولم يأت فيه ما جاء عنه فى القرآن الكريم من نهيه قومه عن تطفيف الكيل ونقص الميزان ومن العقوبة التى حلت بهم حين خالفوه ، كما جاء ذلك فى شأن الأنبياء الاخرين . واكثر ما جاء متشابها فى الكتابين هو قصص يوسف وموسى وعيسى ، ومع وجود هيكل عام يتحد فى كل قصة تختلف تفاصيل الأحداث وغاية القصة والغرض من ذكرها .

والشبهة لدى هؤلاء الذين يتهمون محمدا بنسخ القرآن انه يكفى أن يعرف اطارها العام فينقلها أو يحورها كثيرا أو قليلا ، ولكن من أين نقلها ، وما هى الطريقة التى توصل بها الى معرفة هذه الأخبار ، هنا يلجأ القوم الى أنه كان بالجزيرة يهود ومسيحيون ولقد رأينا من قبل أن هؤلاء كانوا بمبعدة عن مكة ، وان حياة النبى محمد صلى الله عليه وسلم لم تهيىء له اتصالا بأى من هؤلاء ،

---

(١) سورة آل عمران ٣ .

(٢) محاضرات تيرنر .

كما بينا تهافت الأقاويل الفجة التى تستند الى صحبته سلمان الفارسى أو صهيب الرومى ، أو أنه كان قد تزوج بمارية وهى من قبط مصر . اذ لم يتصل به هؤلاء الا بعد رسالته وليس كل مسيحى أو يهودى يعرف ما يعرف الربانيون والأحبار .

وما يتخذه هؤلاء حجة على محمد صلى الله عليه وسلم يتخذه القرآن حجة عليهم وحجة له ، لأنه علم أحداثا لا تمتد اليها أسباب علمه ، هذا مع أميته وعدم جلوسه الى معلم ، ولهذا يقول القرآن « **وانه لفى زبر الأولين ، أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل ؟ (١)** » « **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذن لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ...** » **أو لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم (٢) .**

ونحن نرى فوق هذا انه كان لا بد أن تذكر هذه الأقاصيص ، لأن القرآن لم ينزل لأهل مكة وحدهم ، بل سيذكر بين علماء أهل الكتاب فيجد تصديقا منهم ، وقصص عاد وثمود وبقايا ديارهم من الآثار والأخبار التى يعرفها بعض العرب ، ومن الممكن أن ينتقلوا اليها ليشاهدوها ويروا آثار ما حل بأهلها ، وبذا لا يكون حديث القرآن عنها خيالا ، ولو أن القرآن حدث الناس عن أشياء لا علم لأحد منهم بها ولا يمكن أن يروا بأنفسهم مصداقها ، لكان ذلك كلاما عديم التأثير ، ولا يدرى أحد ان كان حقا أو خيالا ! ونحن المتأخرين لا نعرف شيئا عن ذى القرنين الذى مكن الله له فى الأرض وآتاه من كل شىء سببا (٣) ولهذا اضطربت فيه آراء المفسرين ، فقيل هو الاسكندر الأكبر ، وقيل هو أحد أذواء اليمن ، وقيل غير ذلك . واذن فالقرآن معجزة وسيظل معجزة .

---

(١) سورة الشعراء ١٩٦/٢٦ ، ٩٧ .

(٢) العنكبوت ٤٨/٢٩ ــ ٥٠ .

(٣) انظر سورة الكهف الآيات ٨٣ وما بعدها .

الحديث النبوى

لم تدون الأحاديث النبوية فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دون القرآن وقد حرص النبى على أن تدون آيات القرآن كلما نزلت ، ولكنــه نهى عن تدوين أحاديثه خشية أن تلتبس بالقرآن ، (١) ولهذا مات النبى (ص) وأحاديثه مفرقة فى صدور من سمعوا منه ، ولم تجمع أحاديثه فى عهد الخلفاء كما جمع القرآن، وكان هناك أفراد قليلون كتبوا عن رسول الله (ص) ما سمعوه منه ، وقد أذن لهم بذلك اذ لم يخش لبسا مماكتبوا ، ومن هؤلاء عبد الله ابن عمرو بن العاص ، وكان من نجباء الصحابة ، ومن المكثيرين لرواية الحديث (٢) .

وقد دعت الظروف السياسية التى مر بها المسلمون منذ معركة على ومعاوية الى وضع أحاديث ونسبتها الى رسول الله (ص) كما حرفت بعض الأحاديث بالزيادة أو النقص للدعايات المذهبية ، وربما استباح القصاص والوعاظ أن يفعلوا مثل ذلك اذ رأوا أن ما يدفع الناس عن الشر ويميل بهم الى فعل الخير يبيح لهم ما فعــلوا ، وآخرون وضعوا الأحاديث كيدا للاسلام ورغبة فى تحريفه ، واشتهر من الوضاعين « عبد الكريم بن أبى العوجاء » وقد اعترف بأنه وضع أربعة آلاف حديث يحلل فيهــا ويحرم (٣) وهذا ما حمل طائفــة متخصصة على جمع الأحاديث وتمحيصها ، ولم يبدأ جمع الحديث الا مفتتح القرن الثانى فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وكانت حركة ساذجة ضعيفة تلاها دور نشيط شديد الحذر كان من أول

---

(١) الاتقان جـ ٥٧/١ ، وفيه الحديث لا تكتبوا عنى شيئا غير القرآن .

(٢) انظر حسن المحاضرة جـ ١٢٤/١ ، والنجوم الزاهرة جـ ١٧١/١ .

(٣) فجر الاسلام ٢٥٩ .

من أسهموا فيه الربيع بن صبيح (١٦٠ هـ) وسعيد ابن عروبة (١٥٦) (١) . ثم وجد فى كل قطر من يجمع الأحاديث التى انتهت اليه ويحققها ، ومنهم من رتب ما جمعه فى أبواب فقهية ومنهم من رتبه حسب أسماء رواته ، وكانت حركة صعبة شديدة الصعوبة ولكن الذين اضطلعوا بها كانوا غاية فى الذكاء والأمانة والقدرة على تمييز الحديث الصحيح من غيره .

اعتمدوا فى الخطوة الأولى على رواة الأحاديث وما لهم من صفات الذكاء والأمانة وقوة الذاكرة ، فربما كان الرجل صالحا تقيا ولكن به غفلة لا يستطيع بسببها أن يميز بين حديث وحديث ، أو حسن النية يتقبل الحديث من كل راو ، فهذا لم يقبله المحدثون .

وقد سجلت الأحاديث مع ما يحيط بها من ملابسات ، مثل ابتسام النبى (ص) حين القاء حديثه أو غضبه أو اعتداله من اتكاء أو رفع يديه أو نحو ذلك ويوجد فى مكتبة الحديث النبوى الآن مجموعات جديرة باطمئنان المسلم اليها لشدة ما بذل فى تنقيتها من الجهد ، وأشهرها كتب الصحاح الستة وهى صحاح البخارى ومسلم ، وابن ماجه والترمذى ، والنسائى وأبى داود وصحيح البخارى يحتوى أربعة آلاف حديث منها ثلاثة آلاف أو نحوها تكررت لاختلاف الرواية أو لمناسبة تقتضى اعادتها ، وهو قد استخلصها من ستمائة ألف حديث (٢) وهذا يبين مدى الجهد الذى كان يبذله جماع الحديث فى غربلة الأحاديث وتنقيتها .

وقد اقتضى هذا العمل أصحابه أن يثقفوا ثقافة خاصة لا تقف عند حفظ القرآن والحديث ، بل لا بد للمحدث مع هذا من علم واسع باللغة العربية والأحداث التاريخية حتى نجد البخارى يكتب

---

(١) نفسه ٢٧٣ .

(٢) نفسه

فى التاريخ ، وهو أيضا فقيه ذو مذهب ، وكتابه مبوب أبوابا فقهية ويحتوى آيات قرآنية كثيرة . ومن أشهر أصحاب المسانيد أحمد ابن حنبل وهو أيضا فقيه صاحب مذهب ، وكل هؤلاء هاجروا الى جهات نائية ليجمعوا الأحاديث ، فقد كان الصحابة الذين حفظوا الأحاديث قد تفرقوا فى الأمصار ، وكل أنشأ له مدرسة فى الجهة التى أقام بها ، مالك بالمدينة والأوزاعى بالشام ، وعبد الرزاق باليمن ، وابن المبارك فى مرو ، وهذا مع أسفاره الكثيرة كان يذهب لكل قطر فيدرس فيه ، وقد أسف أحمد بن حنبل أنه لم يستطع التلقى عن مالك وابن المبارك ، وكذلك قعد به الأقلال عن الذهاب الى مرو

وطريقة المحدثين فى روايات أحاديثهم وتبويبها أفادت الفقهاء كما أفادت المؤرخين ، فالفقهاء استفادوا منها فى القياس واستنباط أحكام فقهية مستحدثة ، والمؤرخون عمدوا فى تاريخهم الى اسناده بذكر رواته كما فعل المحدثون ، ثم كان هذا عونا كبير المفسرى القرآن الكريم ، ونحن نقرأ التفسير والتاريخ لشيخ المفسرين وشيخ المؤرخين الطبرى فنجده يعنى بذكر الاسانيد لرواياته ، ويذكر وجوها وأسبابا للحدث التاريخى ، وأسبابا وأحاديث حول الآيات القرآنية ، يتنوع بها معنى الآية ، وفى ذلك فوائد كثيرة للباحثين ، لأنها تعطى الأساس الذى تبنى عليه المعانى . وقريب من هذا ما فعله البلاذرى فى « فتوح البلدان » — حتى نجد أبا الفرج الأصبهانى يفعل ذلك فى رواية الأدب .

وكتب المسانيد بدأت فى نهاية القرن الثانى وبداية القرن الثالث ، ففى الكوفة أخرج عبيد الله بن موسى العبسى مسندا ، وفى البصرة صنف مسرد بن مسرهد مسندا ، وكذلك فعل نعيم بن حماد الخزاعى فى مصر ، وأسد بن موسى الأموى وغيرهم كثيرون (١) .

---

(١) نفسه ١٠٩

وطريقة جمع الحديث وتصنيفه على أبواب سهلت البحث الفقهى كما انها قادت الى ظهور المذاهب الفقهية ، وتميزها تمييزا أكمل ، لأن كلا من مالك والاوزاعى وسفيان الثورى والليث بن سعد والبخارى محدثون ، استخلص كل منهم انفسه مذهبا فقهيا من الأحاديث التى رواها ، وجمعهم الأحاديث كان لخدمة الفقه ، وتبدو عند مالك بصفة أوضح معارضته لأصحاب الرأى العراقيين فهؤلاء لقلة الأحاديث لديهم كانوا يعتمدون على آرائهم وهى آراء مستخلصة من الكتاب والسنة ولكنها لا تعتمد على نص صريح .

ولم يكن موطأ مالك هو أول كتاب حديث بوب تبويبا فقهيا ، ولكنه من أوائل الكتب التى نهجت هذا المنهج ، وقد تعقبه مالك بعد تأليفه بالتنقيح فأسقط منه كثيرا حتى خشى اذا طالت حياته ان يأتى عليه ، ولم يأخذ فى فقهه بكل الأحاديث التى رواها ، بل روى أحاديث صحت عنده سندا ولم يجر عليها فى فقهه ، ربما لأنه أخذ بما هو أقوى منها سندا .

أما طريقة المسانيد فكان مهمتها جمع الأحاديث ونسبتها الى رواتها فهى حركة لخدمة الحديث ، وافادة الفقه منها خطوة تالية .

ومسند ابن حنبل على شهرته ودقة صاحبه وتحريه يعتبر اقل دقة من صحيح البخارى ، كما ان البحث عن حكم فقهى فيه شاق عسير ، وهذا ما اضطر المتأخرين الى رده لأبواب فقهية ، وهو يوجد الآن مطبوعا مبوبا على أبواب الفقه مع اشارات الى مكان كل حديث من المسند الأصلى .

وظفرت هذه الكتب بشراح من المتأخرين أطالوا أحيانا فى شرح غوامضها وبيان مقاصدها ــ كما اختصر كتاب البخارى بحذف الأحاديث المكررة منه والاسانيد الطويلة ، والفت كتب تجمع بين اثنين أو أكثر من الكتب الستة الصحاح ــ وهى حركة ــ واسعة

أفادت الدارسين . وسهلت المقارنة بين رأى فقهى وآخر ، وبين مذهب ومذهب ، واشتهر برواية الحديث جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة وعبد الله بن عباس وابن عمرو بن العاص ، وكان لكل من محمد بن القاسم بن أبى بكر وعروة بن الزبير صلة بأم المؤمنين السيدة عائشة ، واستفادا منها كثيرا فى رواية الأحاديث، وكانت هى أيضا على حظ كبير من الحديث والفقه حتى وضع الوضاعون باسمها وفى سعة علمها بعض الأحاديث .

واذا وزنا بين دراسة الحديث ودراسة القرآن وجدنا دراسة الحديث شاقة تستدعى مجهودا كبيرا ، ذلك لأن القرآن كتب منذ نزوله ولم يضع منه شىء ، أما الحديث فكثر فيه الوضع ولم يبدأ جمعه الا بعد قرن ونصف قرن تقريبا بعد الهجرة .

وقد وضع المحدثون لضبطه قواعد وشروطا تتنـــاول الراوى من حيث ثقافتـــــه وأمانته ودقته وشـــــدته وتســـــاهله وورعه وتقواه ... الخ . وبعد هذا كله لا تصل الثقة فيه منزلة القرآن وهذا أمر طبيعى .

ظهـور الفقهاء

كان النبى صلى الله عليه وسلم مرجع المسلمين فى كل ما يشكل عليهم ، وكان الرجوع اليه هينا على أهل المدينة ومن هم على مقربة منه ، وكان يرسل معلمين وقضاة الى الجهات النائية ، وكان هؤلاء ممن لهم علم ومعرفة بالاسلام، وقد أذن لهم فى أن يجتهدوا ويعملوا رأيهم فى المسائل التى لا يجدون لها نظيرا فى القرآن والسـنة ، وعندما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل الى اليمن سأله بم يقضى ، فقال بكتاب الله ، قال فان لم تجد فى كتاب الله ؟ قال أقضى بسنة رسوله ، قال فان لم تجد ؟ قال اجتهد رأيى وأعمل فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله (١) .

وبعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم جدت مسائل لم تكن موجودة فى عهده ، وأحيانا كانت المسائل تخفى على الخليفة ، فكان أبو بكر اذا عرض له شىء من هذا ، سأل من حوله ان كانوا رأوا أو علموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قضى فى شىء من هذا ، فان لم يجد جمع أهل العلم من الصحابة واستشارهم وأخذ برأيهم .

وفى عهد عمر بن الخطاب جدت مسائل أكثر ، وكان يستعين بما عمل أبو بكر ويسأل الناس ان كانوا يعلمون له قضاء فى مثل المشكلة التى أمامه .

وبهذا زادت مصادر التشريع ، ونشأ مصـدر هام جدا يضاف الى القرآن والسنة وهو الاجماع ، والاجمـاع فى عرف الفقهاء هو ما تتفق كلمة أولى الرأى من المسلمين على حله أو تحريمه

---

(١) انظر اعلام الموقعين ٢٠٢/١

واستندوا فيه الى الحديث الشريف : ما رآه المسلمون حسنا فهو حسن ، والاجماع يقدم على النص ويعتبر شرحا له أو تأويلا ثم هناك أساس رابع وهو القياس . ويراد به معادلة مشكلة ما بأخرى شبيهة لها ، واستنتاج حكم لها أو قاعـــدة عامة . وهذه المصادر الأربعة هى أسس الاجتهاد .

وقياس مســـألة على أخرى تشبهها ، أو الاجتهاد فى وضع قاعدة فقهية أو استخلاص حكم شرعى أمر شاق يحتـــاج الى علم كاف بالقرآن والسنة وعمل الرسول (ص) والصحابة ، ولا بد أن يكون المجتهد ذا ذكاء وحذق وعلم باللغة العربية وطرق تعبيراتهـــا وتشقيق الكلام فيها . وتلك عدة المجتهدين وجاء فى خطـــاب عمر ابن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى حين ولاه قضاء البصرة قواعد عامة شاملة ومنه فيما يتصل بحديثنا قوله :

« الفهم فيما أدلى اليك مما ورد عليك مما ليس فى قرآن ولا سنة ، ثم قايس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال ، ثم اعمـــد فيما ترى الى أحبها الى الله واشبهها بالحق » (١) » .

واشتهر من الصحابة جماعة كانوا ذوى أثر بارز فى نشر الفقه الاسلامى وتلوينه ، وكان لكل واحد شهرة فى فرع من الفروع فكان على بن أبى طالب ذا شهرة فى القضاء والمواريث ، وكان زيد بن ثابت أيضا من أعلم الصحابة بهذا العلم ، وكانت السيدة عائشة مقدمة فى الفرائض والأحكام والحلال والحرام ، وتخرج عليها القاسم بن محمد ابن أبى بكر وعروة بن الزبير ، لمـــا لهما بها من صلة القرابة (٢) .

---

(١) أنظر الخطاب كله فى اعلام الموقعين جـ ٨٦/١ ، وقد استغرق شرحه بقيـــة الجزء الاول ، ومعظم الجزء الثانى .

(٢) قال ابن القيم : الذين حفظت عنهم الفتـــوى من الصحابة مائة ونيف وثلاثون نفسا ما بين رجل وامرأة ، المكثرون منهم سبعة هم عمر وابنه عبد الله وعلى =

وحين انتشر المحدثون فى الأمصار كان كل واحد منهم اماما فى الاقليم الذى نزل به فاقتدى فقهاؤه به ، رووا عنه الحديث وأخذوا أحكام الفقه ونهجوا منهجه فى البحث ، واخذ أهل المدينة عن أصحاب زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر ، وأما أهل مكة فعلمهم عن أصحاب عبد الله بن عباس ، وأما أهل العراق فعلمهم عن عبد الله بن مسعود (١) وهؤلاء الأربعة يعتبرون مرجعا للمسلمين بوجه عام ، يضاف اليهم معاذ بن جبل بالشام ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وقد روى المصريون عنه أكثر من مائة حديث ، ثم آخرون كثيرون .

واشتهر بالفتيا سبعة من التابعين بالمدينة هم سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد ، وخارجة بن زيد ، وأبو بكر عبد الرحمن بن المحرث بن هشام ، وسليمان بن يسار ، وعبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود (٢) . وظهر فى كل قطر فقهاؤه ومحدثوه .

ومن هؤلاء ظهر الفقهاء المجتهدون ، ذلك أن مسائل التشريع كثرت وتضخمت المسائل الفقهية ، وجدت للناس مشاكل لم تكن موجودة من قبل ، فدعت ذوى العلم الى تفكير أكثر ، ثم ان اختلاف الاقاليم فى نظم معايشها وشئون حياتها العامة جعل مشاكلها متنوعة مختلفة ، وجعل علماء كل أقليم يفكرون تفكيرا يلائم بيئاتهم ويحل مشاكل قومهم ، ومن هنا تنوعت مذاهب الفقه واختلفت آراء

=

وابن مسعود وعائشة وزيد بن ثابت وابن عباس ، والمتوسطون كثر منهم ابو بكر وام سلمه وابو هريرة وعثمان ومعاذ ... والمقلون لا يروى عنهم الا المسألة والمسألتان ، ومنهم أبو الدرداء وابو عبيده والحسن والحسين وابى بن كعب (أعلام الموقعين ١٢ - ١٤) .

(١) انظر اعلام الموقعين ٢١/١ .

(٢) نظم بعضهم أسماءهم فى هذا البيت :

فقل هم عبيد الله عروة قاسم   سعيد ابو بكر سليمان خارجة

الفقهاء ، وظهر فى القرن الثانى الهجرى واوائل الثالث عدد من الأئمة المجتهدين يعرفون باسم الفقهاء لكل رايه ومنحاه ، ثم بقى منها المذاهب الأربعة المشـــهورة ، الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى ، واختلف كل عن الآخر فى تفكيره ومنحى اجتهاده .

وابرز ما يتمثل فيه هذا الاختلاف ظهور مدرسة جريئة تعول على القياس وهى مدرسة الرأى ، ومدرسة محافظة تعتمد على الحديث . والأولى تختار ما تراه أقرب للصواب واليق بشئون المسلمين، معتمدة فى اختيارها على المنهج العام فى التشريع الاسلامى، وهى مدرسة تمتد جذورها الى عمر بن الخطاب ، فقـد كان رضى الله عنه اذا عرضت عليـه مســألة لم يرد فيهـا نص من القرآن ولا من السنة يسأل الناس ان كان لديهم علم فيها أو سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فيها ، فان لم يجد أعمل فكره وقضى وكأن ربيعة بن أبى عبد الرحمن فروخ ـ وهو شيخ الامام مالك ، يسمى ربيعة الرأى لاعتماده على رأيه .

والامام أبو حنيفة أحد الأئمة الأربعة كان بالعراق ولم تصح لديه الا أحاديث قليلة فكان من أصحاب الرأى، ثم ان العراق قطر زراعى وارث حضارة فارسية وحياته تختلف عن الحياة العربية الساذجة ولهذا كان الاختلاف واسعا بين فقه أبى حنيفة وفقه مالك بالمدينة، فمالك لديه ثروة من الحديث وهو صاحب الموطأ ، وحياته فى المدينة أتاحت له أن يعرف من سكانها كثيرا مما كان يعمل رسول الله (ص) لهذا يضم الى اجتهاده مصدرا جديدا هو عمل أهل المدينة ، وهو مصدر لا يتأتى لغيره من سكان الأمصار النائية ، ومالك والشافعى والليث بن سعد أصحاب مذهب وسط ، لا يعتمد على الرأى وحده ولا على الحديث وحده ، ولكن مالكا كان يكره تفريع المسائل وكثرة الافتراضات ، وكان يقول للشافعى حين يسأله مسائل فرضيـة خيالية : أعراقى أنت ؟ أمن أهل الرأى أنت ؟

والشافعى تلميذ لمالك وتلقى مذهب أبى حنيفة بالعراق بعد

موت الامام وناظر صاحبه محمد بن الحسن الشيباني ، وكان للشافعي ميل الى الرأى ، وقد عدل فى مذاهبه حين ذهب الى مصر، وهذا من أثر اختلاف البيئة والظروف الاجتماعية هنا وهناك .

والمدرسة الثالثة فى الاجتهاد هى مدرسة الحديث ، ومن أصولها فى الصحابة عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص لكثرة ما كان لديهما من الأحاديث ، وكان الشعبى لا يعتد برأى هذه الجماعة ويقول ما جاءكم من رأى هؤلاء فاطرحوه فى الحش (١) ، ومن أصحاب المذاهب المشهورة فى هذه المدرسة أحمد بن حنبل ، فهو محدث لديه من الحديث ثروة طائلة ، وهو متشدد يعتمد على الحديث ويكره أن يقول شيئا برأيه

وكان النزاع شديدا بين مدرسة الحديث ومدرسة الرأى .

وهناك مدرسة رابعة يمكن أن تضم الى هؤلاء وهى مدرسة الظاهرية ، زعيمها داود الاصفهانى ، وهذه المدرسة تأخذ بظاهر النص ، وتكره اعمال الرأى والنفاذ الى ما وراء منطوق اللفظ ، وقد انتشرت فى الأندلس وكان لها أثر على الفكر الأندلسى ، ولعله بوحى منها كانت آراء ابن مضاء القرطبى النحوية فى رفض العلل الثوانى والثوالث ، واعرابه ما بعد اذا مبتدأ .

ومن كبار اتباع المذهب الظاهرى ابن حزم ، من العلماء الأندلسيين البارزين ، وقد دعا لهذا المذهب وشجعه .

ولم يعش المذهب الظاهرى طويلا .

ثم تغلبت أخيرا مدارس الحديث على مدارس الرأى ، ذلك لأن الحركة فى أساسها دينية والتشريع الفقهى مرجعه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء كان المرجع قرآنا أو حديثا ، ولا يلجأ الى القياس والرأى الا عندما لا يوجد سند ، وبهذا اعتبرت مدرسة الحديث المحافظة أقرب الى ينبوع الدين ، ثم كان جد

(١) الحش مكان قضاء الحاجة .

رجال الحديث فى جمعه وتبويبه وتصفيته مما جعل الأحكام الفقهية قريبة المنال منه سهلة على المجتهدين كى يستندوا اليها .

ولم تكن مذاهب الحديث شديدة التباعد بعضها عن بعض ، حتى ان الشافعية يعتبرون أحمد بن حنبل واحدا منهم ، وهذا التقارب هو الذى ساعد على اندثار بعض المذاهب والاكتفاء بما هو أشهر أو أيسر .

ومدرسة الحديث المحافظة ليست بعيدة عن التطور ولا هى مدرسة ذات جمود فكرى ، فهى أيضا سايرت الحضارة المستحدثة وتقبلت تيارات التجديد ، ولكن سبب انتصارها واللجوء اليها هو ما لديها من قوة السند وحجة الأحاديث ، وأصحابها كانوا أيضا يعملون رأيهم فيما يجد لهم من المسائل لكن الرصيد الكبير الذى كان لديهم من الأحاديث خفف عنهم كثيرا من عبء الاجتهاد ، بينما كان هذا العبء ، وطول التفكير فى المشكلات المستحدثة هو الذى وسع مدارس الراى واكسبها مرونة وقابلية أكثر للتطور .

وقد كان الأوزاعى ذا مذهب فقهى قريب من مذهب الشافعى ولكن مذهبه اندثر ولم يبق منه الا مقدار فى كتاب الأم الذى أملاه الشافعى ، وهو كاف فى الحكم على منحاه فى الاجتهاد .

وتعدد المذاهب الفقهية أكسب الفقه الاسلامى مرونة وسعة ، وجعل باب القياس فيه يتسع للمسائل الكثيرة الجديدة ، ومنذ القرن الرابع الهجرى كان الفقه قد تضخم واكتمل ، ولم يعد فى حياة المسلمين من الجدة ما يدعو الى اجتهاد واسع ، وبذا توقف الفقه وانقطع الاجتهاد الا فى مسائل قليلة جدا ، ولم يظهر مفكر ذو مذهب فقهى يزاحم المذاهب الأربعة ، ولكن ظهر مجتهدون فى مذاهبهم . فابن رشد مجتهد فى المذهب المالكى ، وابن تيمية وابن قيم الجوزية مجتهدان فى المذهب الحنبلى ، وهكذا .

وقد أخذ المرحوم أحمد أمين على هؤلاء الفقهاء انهم لم يضعوا

قوانينهم فى مواد ، بل تركوها مسائل مسرودة واحدة بعد الأخرى بدون ترقيم ، وهذا فى الواقع تكليف لهم بشيء لم يحدث فى عصورهم .

وانقرض المذهب الظاهرى بعد خروج العرب من الأندلس ، ولكنه يدرس كآثار فكرية ، وأيضا هو بما اتسم به من حرفية فقد مرونة الفقه التى امتازت بها المذاهب الاخرى .

والقانون الاسلامى الآن شامل دقيق يقف بجانب القوانين المعاصرة ، وهو يتمسك بالحدود من قطع يد السارق وجلد الزانى أو رجمه ، وقتل القاتل عمدا ما لم يعف ولى الدم عنه ، وكانت هذه القوانين موجودة عند السومريين وهى فى قوانين حمورابى ، كما هى فى الديانة اليهودية ، وقد تركها السومريون قبل أن يتركها اليهود . وهى عقوبات رهيبة ولكنها رادعة ولا تطبق الا تحت شروط دقيقة منها أن يشهد على المذنب أربعة شهود أو يقر هو بارتكابه الجريمة ، والذى شوهد فى تاريخ المسلمين ان هذه القوانين تمنح المجتمع أمنا واطمئنانا ، وهى تطبق الآن فى الجزيرة العربية ، وفى مواسم الحج تزدحم مكة والمدينة وما حولهما بالوافدين من مختلف البلاد ، ولكن السرقة وارتكاب الفاحشة مع سهولة ارتكابهما لا وجود لهما ، وكانا قبل قيام الحكومة السعودية فاشيين .

ومنذ فترة قليلة ــ فى أواخر الستينيات اقترح بعض النواب الانجليز اعادة عقوبة الاعدام ، لأن بعض القتلة استهانوا بعقوبة السجن فلم يبالوا بارتكاب الجريمة .

وظن بعض الباحثين أن الحكومة المصرية عدلت عن الشريعة الاسلامية الى قانون نابليون لما فى الفقه الاسلامى من ضيق وجمود ، وهذا خطأ لأن القانون الأوروبى أملى على مصر املاء عقب الاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ م . ونابليون ــ كما هو معروف استخلص قانونه المدنى من مذهب الامام مالك ، وكان يفخر به فى أواخر ايامه فيقول ان كانت معركة واترلو ذهب بانتصاراتى العظيمة فان قانونى

المدنى سيظل خالدا ، وقد سادت قوانين نابليون فى أوربا ، ولكن اختلفت فى قطر عنها فى آخر .

والآن يتجه البرلمان المصرى الى العودة الى قانون الاسلام . ولا ريب أن العالم الشرقى قد خسر كثيرا جدا بتخليه عن القانون الاسلامى منذ أجبره المستعمر على تركه .

ولم يغلق باب الاجتهاد ، ولم يتجمد الفقه الاسلامى ، غير ان القوانين العامة التى وضعت من قبل قد استوعبت شتى عناصر الحياة ، فما يجد الآن فى حياتنا من السهل ان ندرجه تحت القواعد العامة التى قررت من قبل .

ومن أثر هذه المذاهب واختلاف آراء الفقهاء كان اختلاف القضاء فى انحاء الدولة الاسلامية بعد أن اتسعت وأصبحت أقاليم متعددة.

ويروى أن أبا جعفر المنصور طلب من الامام مالك أن يجمع الاحاديث وان ترسل نسخ منها الى الامصار ويؤخذ الناس على العمل بها ، فلم يقبل مالك هذا الرأى وقال أن رجال الحديث توزعوا فى الأمصار واذاع كل منهم أحاديث أخذ الناس بها ويصعب تحويلهم عنها .

ويبدو أن أبا جعفر كان يريد توحيد وجهة النظر الفقهية أو يحمل الناس على مذهب واحد .

ولسنا ندرى ان كان مطلب المنصور هذا قبل أن يكتب ابن المقفع رسالة الصحابة او بعده ، فرسالة الصحابة حوت ضمن اغراضها الكثيرة توحيد القضاء فى الأقطار الاسلامية وذكرت ان الهوة أصبحت واسعة حتى ان بعض القضاة يحل ما يحرم الآخر ، هذا مع تقارب الأقاليم — « فيستحل الدم والفرج بالحيرة وهما

---

(١) انظر رسالة الصحابة فى كتاب أمراء أكبياد ، وكتاب من حديث الشعر والنثر .

يحرمان بالكوفة ، ويكون مثل هـذا الاختلاف فى جوف الكوفـة فيستحل فى ناحية منها ما يحرم فى ناحية أخرى ، غير أنه على كثرة الوانه نافذ على المسلمين فى دمائهم وحرمهم .. » .

ويضعنا هذا امام وجهتى نظر لكل منهما أهميتها، فالامام مالك يرى ان كل اقليم درج على مذهب وقواعد لا ينبغى أن يحول عنها وهذا حق ، ومن ناحية أخرى أن عرف الاقاليم مختلف ويجب أن تراعى طباع الناس وعاداتهم ، ولكن ابن المقفع رأى أن الخلاف قد اتسع حتى فى البلد الواحد ، وقد ذكر الى جانب ذلك عجب القضاة بما فى أيديهم من آراء وأحـكام واستخفافهم برأى من سواهم ، واذا أغضينا عن مطلبه فى توحيـد القضاء عامة لا نرى تضاربا فى الرايين لأن توحيد القضاء فى الاقليم الواحد أمر بالغ الأهمية ، والامام مالك تحدث عن الأقاليم المختلفة لا عن الأقليم الواحد ثم ان الاختلاف فى بعض الأمور الفرعية غير الاختلاف فى الأمور الاساسية .

وعبد الله بن المقفع ـ بما كان يحمل فى نفسه من كراهيـة للمنصور ـ بالغ فيما جاء فى رسالته فى مختلف فروعها حتى اننا نجدها فى بعض مواقفها تحريضا لبعض الشعوب على الدولة وذلك واضح فى حديثه عن جند الشام واستعطافه الخليفة من أجلهم .

وأخذ على الاتباع من أصحاب المذاهب الفقهية أنهم غلوا فى عداء بعضهم بعضا ، وانكار كل مذهب طريقة الآخر ، ولكننا لا ننسى أن العصر كان عصر مناظرات ، وأن بيوت الخلفاء والكبراء والأندية كانت تحفل بالمستمعين لمن يتناظرون ، وكان النحويون والفقهـاء ورجال العقائد كل فريق منهم يناظر فريقـا آخر ويحرص على الانتصار عليه ، نحو هذا الى نوع من المنافسة والعداء . ثم جاءت عصور الجفاف الفكرى والعلمى فدعت الى تعصب وتشديد أكثر .

الحلال والحرام فى الاسلام

الاسلام دين سمح يساير الحياة ، ولا يكلف الناس ما يشق عليهم ، فهو لا يحرم عليهم المطاعم الطيبة ولا الاستمتاع بجميل الثياب ، ولا المتع البريئة أيا كان نوعها ، ولكنه يكره الاسراف والغلو ، ولا يحب الانغماس فى الترف انغماسا يضعف الشخص عن العمل ويجعله يعتمد على غيره ، حتى دور العبادة يباح للمسلم أن يستمتع فيها بكل زينته ولابأس عليه فى ذلك . ولهذا يقول القرآن الكريم : ((**يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامه ..**)) (١)

والاسلام لا يرضى الرهبنة ممن هو قادر على العمل والكسب لأن الاسلام يدعو للعمل ، ويعتبره عبادة وفى القرآن: ((**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**)) (٢) ((**هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ..**)) (٣) ومن احاديث رسول الله (ص) شر الناس عند الله المكفى الفارغ ، أى الذى يجد ما يكفيه وهو لا يعمل، وحدث بعض الصحابة رسول الله (ص) عن واحد منهم يقوم الليل ويصوم النهار ، فلما سألهم عمن يكفيه شئون عيشه قالوا كلنا نكفيه ، قال كلكم خير منه .

والاسلام يبيح التجارة والمضاربة ولكنه يحرم الربا لأنه ينافى

---

(١) سورة الاعراف : ٣١ ، ٣٢ .

(٢) سورة التوبة : ١٠٥ .

(٣) سورة الملك ١٥ .

المروءة والتعاون الانسانى ، فهو نوع من أكل أموال الناس بالباطل

وفى القرآن : ((**وأحل الله البيع وحرم الربا** (١))) وفيه ((**يمحق الله الربا ويربى الصدقات**)) (٢) ، وفيه : **وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون**)) (٣) .

وقد كان الربا فاشيا فى العرب ، وكان العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله (ص) من المرابين ، وحين فتحت مكة أعلن رسول الله (ص) أن ربا الجاهلية موضوع وانه يبدأ بربا عمه العباس .

وكان من العرب من يغلو فى الفائدة التى يأخذها حتى تكون اضعاف ما دفع للمدين ، وهذا ما جعل القرآن ينص على ذلك فى قوله ((**يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة**)) (٤) . وهناك آيات كثيرة تتوعد من يتعاملون بالربا .

والاسلام ينهى عن قبول مال فيه شبهة الربا ، ويحتم أن يكون المال حلالا صافيا .

وبدلا من قبول الربا يطلب الاسلام من المسلم أن يساعد المدين المعسر بأن يسلفه ما يسد به حاجته وأن يمهله حتى تزول عسرته، كذلك يعطى الزكاة للمدين المعسر . وهو ما يسمى الغارم ولا فرق بين أن يكون من يتعامل المسلم معه مسلما أو غير مسلم . فالاسلام دين الانسانية والتسامح ، وكل انسان تحترم فيه الانسانية ، وهذا على عكس ما جاء فى سفر التثنية : ((للأجنبى تقرض الربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا يباركك الرب الهك)) .

---

(١) سورة البقرة : ٢٧٥ .

(٢) سورة البقرة ٢٧٦ .

(٣) سورة الروم الآية ٣٦ .

(٤) سورة آل عمران ١٣٠ .

ودرج أئمة المسلمين على قاعدة عامة هى الاحتكام الى الضمير فالاثم ما حاك فى الصدر وعافته النفس ، وقالوا « استفت قلبك وان افتوك وان افتوك وان افتوك » .

وفى القرآن الكريم : **« خذ العفــو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » (١)** .

والعرف ما تعرفه الطبيعة البشرية وتطمئن اليه النفس من وجهة النظر الانسانية .

---

(١) سورة الاعراف : ١٩٩ .

أثر الفتوحات الاسـلامية

مات رسول الله (ص) والاسلام لم يتجاوز حـدود الجزيرة العربية ، وعقب موته مباشرة ارتد العرب ، لم يكفروا بالله الواحد الأحد، ولم يرجعوا للوثنية ، ولكنهم منعوا الزكاة، وكانت عقلياتهم لا تزال متأثرة بنظام العرب القبلى ، فظنوا الزكاة اتاوة تدفع لمن هو أقوى منهم (١) ، واضطر الخليفة الأول أبو بكر أن يحاربهم ، وادت هذه الحروب الدولة الناشئة ان تحتك بأكبر دولتين اذ ذاك وهما الدولة الفارسية والدولة الرومانية، وكانت كل منهما ترى فى الدولة الناشئة خطرا يجب القضاء عليه بينما كانت الدولة الاسلامية تدرك ما يبيتان لها من سوء ، لهذا لم يكن بد من حرب فى ممتلكات فارس والروم جميعا ، وكان الغريب فى الأمر أن رعاياهما رحبوا بالعرب الفاتحين ، وتنفسوا الصعداء حين دخل المسلمون بلادهم، ذلك لأن حكومة المسلمين كانت تقوم على مبادىء الاسلام وهى أدنى الى الخلق القويم والعدل المطلق والديمقراطية التى تجعل الحاكم موظفا لدى الشعب طبقا لما خاطب به أبو بكر قومـــه : أطيعونى ما أطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لى عليكم .. » .

وفى اقل من قرن امتدت الفتوحات الاسلامية من الهند الى المحيط الاطلسى ومن البحر الأبيض الى المحيط الهندى والى بلاد النوبة جنوب مصر ثم عبر العرب البحر الى اسبانيا .

هذه الدولة التى امتدت سريعا شملت اجناسا عديدة ، واقواما كانت لهم طقوس دينية ونحل ولهجات وألسن ولغات وطبائع تختلف

---

(١) كان معروفا لدى العرب قبل الاسلام ـ أن تفرض القبيلة القوية ضريبة على القبيلة الاخرى التى هى دونها ـ وفى نظير ذلك تقوم بحمايتها من القبائل الاخرى .

كل منها عن الأخريات ، ولكن الاطار العام الذى يحويهم جميعا كان هو الاسلام شريعة الله . وأحدث هذا الوضع نتائج ذات أهمية فى تاريخ الاسلام الاجتماعى والعقلى والثقافى .

١ ـ ان الاسلام أدى الى عملية مزج بين كل هذه الأجناس ، فعلى كل ما بينهم من اختلافات صهروا فى بوتقة الاسلام ، واصبحوا جميعا أمة واحدة ذات شعور واحد وأمانى واحدة ، وقد وسعت المسيحية أمما ومساحات أوسع ولكنها لم تنجح فى عملية المزج التى نجح فيها الاسلام ، ذلك لأن المسيحية قامت على عقيدة خاصة ، ولم تعن بقانون ينظم الحياة الاجتماعية ، فظل المسيحيون أمما شتى يضرب بعضهم رقاب بعض ، ثم ان القانون الاسلامى قوامه المبادىء الخلقية ورقابة الله تعالى ، وان كل شخص سيسأل أمام ربه عن كل ما يعمل ، وأن الناس جميعا اخوة فى الانسانية وهذا ربط بين المسلمين برباط الاخاء وجعلهم وحدة متماسكة .

٢ ـ ان الاسلام أيقظ فى هذه الأمم حركة فكرية ووجهم الى التفكير الميتافيزيقى والثقافى بوجه عام ، فقد كانت فتوحات الاسلام منظمة يسير فيها القراء والمعلمون والفقهاء القانونيون مع الجيش المحارب (١) ، وكان وعاظهم يذكرونهم دائما بأن نصر الله لا يكون لمن يعصيه ، وأن تقواه سبحانه مفتاح نصره ، واذا دخلوا بلدا قام هؤلاء المعلمون بتعليم اللغة العربية وتحفيظ آى القرآن الكريم ثم تدريس مبادىء الاسلام لأهل البلد الذى دخلوه ، بهذا لم يكن الفتح الاسلامى فتحا عسكريا فقط بل كان فوق هذا فتحا ثقافيا ، وقد ذكرنا ذلك من قبل .

٣ ـ أكد هذا المزج ما حدث من تزاوج بين العرب والأمم التى غلبت فالعرب اقبلوا على الزواج من الفارسيات والروميات خصوصا فى الأندلس اقبالا كبيرا ، ونشأ من ذلك جيل جديد له

---

(١) انظر ضحى الاسلام ٢٨٨/١ ، والدعوة الى الاسلام ص ٦٩ .

صفات الجنسين ، ولكنه امتاز على أقرانه من العرب الخلص أو الأعجام الخلص ، وهذا أمر تؤيده بحوث « الانثروبولجى » الحديثة. وكان العرب يدركونه ويقولون : اغتبروا لا تضووا ، واذ نشأ بينهم هذا الجيل ممتازا بنجابته وشجاعته كانوا يقولون : ما ضرب رءوس الأبطال كابن الأعجمية ، وقالوا :

انذر من كان بعيد الهم تزويج أبناء بنات العم

فليس يخلو من ضوى وسقم

٤ ـ أدى هذا الامتزاج الى فساد السليقة العربية ، ودعا الى وضع قواعد النحو والبلاغة ،وكان غير العربأحوج الى ذلك بطبيعة الحال ، ونجد فى تاريخ الفكر العربى أعلاما بارزين من غير العرب ، ينسبون الى البلاد التى نمتهم ، فيقولون القرطبى والمراكشى ، والبطليموسى والكرمانى والمروزى والبخارى والقزوينى ، وهكذا ، ومن هؤلاء علماء كبار فى الحديث والفقه والتفسير والأدب ، وهذا يدل على مدى اقبال هؤلاء الأجانب على الاسلام دينا وثقافة ، وعلى أنهم دخلوا الاسلام طوعا لا كرها ، ونجد منهم آساتذة يرحل اليهم العرب ، وقد تمنى أحمد بن حنبل أن يرحل الى مرو ليتلقى الحديث هناك ولكن قعد به ضيق ذات اليد ، وابن حنبل من كبار المحدثين . وله مسنده المشهور الذى تحدثنا عنه قبل .

٥ ـ ادخل هؤلاء على الاسلام شيئا مما كان لديهم من تقاليد فلونوا الفكر الاسلامى بألوان جديدة بعضها يقبله الاسلام وبعضها لا يقبله ، وهذه التقاليد بارزة فى الفكر الشيعى ، ولعل الشيعة وحدهم هم المسئولون عن فكرة المهدى المنتظر التى لا يعرفها الاسلام .

٦ ـ كان فى هؤلاء شعوبيون ، لم ينظروا الى الاسلام فقط بل نظروا أيضا الى العرب الذين نقلوا اليهم الدين واللغة العربية ، ومنهم الخلفاء والحكام ، فنادوا بتفضيل أممهم على الأمة العربية ، وعابوا عادات العرب التى كانوا عليها قبل الاسلام ، ووازنوا بينها وبين حضارة الفرس ، ونسوا أن الاسلام يفضل الانسان كانسان ،

وان من آيات القرآن : « **ولقد كرمنا بنى آدم** » (١) و « **يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » (٢) ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول « لا فضل لعربى على اعجمى ولا لأعجمى على عربى الا بالتقوى والعمل الصالح .. »

والحق أن هذا لم يظهر الا عندما خفتت روح الاسلام فى نفوسهم وغلبتهم العصبية على العقيدة .

كذلك ظهر من هؤلاء زنادقة التحفوا الاسلام ولم يتبطنوه ، وكان من هؤلاء من حمل للاسلام عداء ، ومنهم من عمل على تحريفه وافساده وقد ظهر هذا منذ عهد هشام بن عبد الملك ، ومن أبرز المارقين اذ ذاك جهم بن صفوان (٣) الذى أفتى بأن الاسلام علم ومعرفة ولا يستلزم عبادة ، والجعد بن درهم (٤) ، وفى أيام الخليفة المهدى العباسى كثرت الزندقة ، واضطر الخليفة أن يعلن حربا على الزنادقة لأنهم أفسدوا الأخلاق والدين ، ولا بأس عليه فيما عمل ، فذلك حفاظ على الدولة وعلى الشعب . والقانون الانجليزى يفرض عقوبات مختلفة على الخارجين على الأخلاق والعرف ، وقد نفيت احدى الممثلات هى وأخوها لخروجهما على قوانين الدين والأخلاق ، فعمل المسلمين فى محاربة الزندقة لا شىء فيه ، وكما استفاد الكثيرون من أهل البلاد المفتوحة نظما وعلما تأثرت بهم قلة من العرب زندقة ومجونا . وتلك طبيعة الحياة أن يكون بها تأثر وتأثير ، وتقليد فى الخير والشر جميعا .

٦ ـ وتأثر المسلمون بالفرس والروم أيضا فى نظم الحكم ، وكان أهم ما فى هذا جعل الخلافة ملكا موروثا ، فان معاوية أخذ البيعة لابنه يزيد فأثار بها تذمرا فى نفوس الناس ، وكان عمله على

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٠ .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٣) أنظر ميزان الاعتدال ١٩٧/١ والكامل حوادث ١٢٨ .

(٤) أنظر ميزان الاعتدال ١٥٨/١ ، ولسان الميزان ١٠٥/٢ ، والنجوم الزاهرة

غير ما فعل أبو بكر اذ عين عمر بن الخطاب ، وهو ليس من ذويه ولم يعينه الا بعد ان استشار ذوى الراى من كبـار الصحابة ، وعين عمر ستة ليس فيهم ابنـه ، ورفض أن يكون ابنـه أميرا للمؤمنين ، ثم أخذ الخلفاء التالون لمعاوية يولون أبناءهم ، سواء فى العهد الأموى أو العهد العباسى ، وسبب هذا حروبا داخلية وانقسامات كثيرة وكان هذا كله . ولا ريب . خروجا عن تعاليم الاسـلام .

ويجب أن نتذكر أنه بالرغم من ذلك ظلت الدولة تصـطبغ بالصبغة الاسلامية ، وظل الولاة والحكام يقضون بقوانين الاسلام وظلت الزكاة تجبى وتوزع على فقراء البـلاد التى جبيت منها ، وظلت الديمقراطية بادية على الحكم حتى كان الوالى فى كل أقاليم يخشى أن يشكوه الشعب الى الخليفة ، وظلت الدعوة الى الاسـلام وترغيب الناس فيه مستمرة ، وظلت الدعوة بوجه عام دعـوة اسـلامية .

وقد أخطأ جولدتسين خطأ فاحشا اذ زعم أن من الخلفاء من لم يعنه نشر الاسلام ، ومن ثم عمل على وقف دعوته ومنع الناس أن يدخلوا فيه كما أخطأ خطأ أشد حين زعم أن حـكومة الاسـلام أتوقراطية مستبدة وقد شرحنا فى ايجاز بعض الأفكار التى خانه التوفيق فيها .

٧ ــ أقر الفقه الاسلامى تقاليد وعادات كانت سائدة فى الأقاليم التى دخلها ولم يحرمها القرآن والسنة ، فمن القواعد الفقهية أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ما ينسخه ، وفيه أن كل أنواع التعامل مباحة سوى ما حرم الشرع ، أى ان الأصل فيها الاباحة والتحريم طرأ على بعض منها ، ولذا نجد فيه قوانين كانت موجودة عند قدماء المصريين أو عند الفرس والبابليين ، أو كانت عنـد العرب ، ولا شىء فى ذلك ما دامت هـذه الأشياء داخلة فى اطار الأسس الاسلامية العامة التى تحرم الربا والاعتداء على حق الغير وتحتم المساواة بين الناس فى الحقوق الانسانية .

النظـام الاداري

الخليفة في الحكومة الاسلامية هو الحاكم الأعلى في الدولة كلها ويعين من قبله ولاة على الأقاليم ، ويكون مع الوالي القاضي الذي يفصل في الخصومات وفقا للشريعة الاسلامية ، والمحتسب الذي يراقب الأسواق ويشرف على الأسعار والبضائع ويحـول دون الغش ، كما يكون حول الوالي رجال الشرطة والكتبة والمستشارون وهؤلاء موظفون رسميون ، ولكن يصحب الفتح عادة معلمون وقراء وفقهاء ، وهؤلاء يستشيرهم الوالي ويستعين بهم بقدر ما تدعو حاله الى ذلك . وربما قام الخليفة أو الوالي ببعض أعمال الحسبة .

وقد استفاد الحكام الاسلاميون من نظم البلاد التي فتحوها، اذ كانت الدولة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم صـغيرة وشئونها هينة وظاهرة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرسل الى الأقاليم قضاة ومعلمين ، كما كان يرسل جباة الزكاة ، وكان كل مسلم قادر على الحرب ينهد لها اذا دعت الظروف لذلك . ثم توزع الغنائم على المحاربين بعد احتجاز الخمس منها لبيت المال . وفي عهد عمر دونت الدواوين اقتداء بنظم الروم في دمشق (١) ، واستعمل المسلمون كتابا في كل أقليم منه ، وكانوا يكتبون بلغته، ثم تعلم العرب هذا النظام فحلوا محل الأجانب ، وكان ذلك في عهد الدولة الأموية . وهـذا تطور اجتماعي سريع يدحض ما قاله تسيهر من أن الاسلام أكسب المسلمين الجمود .

ولم تكن الوظائف القيادية مقصـورة على العرب ، ففي مصر كان من أبرز أصحاب الفتيا فيها يزيد بن أبي حبيب — وهو نوبي من دنقله ، وعبد الله بن أبي جعفر ، وهو من الموالي أيضا ، وقـد أنف العرب من توليهما منصب الفتيا ، فقال عمر بن عبد العزيز : ما ذنبي أن كانت الموالي تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا تسمون (٢) .

(١) أنظر كتاب الفاروق جـ ٢٢٨/٢ وما بعدها .

(٢) خطط المقريزي جـ ١٤٣/٤ .

ويظهر أن هذا التسامح هو الذى أفسح للشـــعوبية مجال الظهور ، وقد عملت على كسر وحدة الأمة وانقسامها ، ونجمت أفكارها فى بلاد فارس اذ رأى هؤلاء أنفسهم ذوى حضارة ومظاهر مدنية ليس للعرب مثلها فتعالوا عليهم ، وقال شعراؤهم أمثـــال بشار بن برد وأبى نواس أشعارا جارحة تؤذى العرب والمسلمين .

وفى العصر العباسى علت هذه النغمة اذ كان للفرس نفـــوذ واسع فى الدولة الجديدة ، وتبعها دعوة الى القومية والعصـــبية العنصرية التى لا يقرها الاسلام .

وكانت الدولة آنذاك قد اتخذت مظاهر حضارية فارسية ، وبرزت المرأة الفارسية واتخذت لها مكانا مرموقا فى بيوت الخلفاء والأمراء والأثرياء فسهل ذلك سريان التيار الشعوبى ونقل الأدباء الذين يتقنون اللغة الفارســـية الى اللغـــة العربيـــة أفكارا جديدة مثل كتاب اندرز Andorz وهى ارشادات عن فن الحياة ، وكتاب النصيحة فى العادات والتقاليد ، وترجم ابن المقفع كليلة ودمنة ، ولثقافته الفارسية كتب رسالة الصحابة وهى نقد صائب عميق ، وتوجيه لسياسة القضاء (١) .

واكتسبت الدولة من الفرس مبدأ يشبه الحق الالهى ، وان لم يكن واضحا كل الوضوح ، ولكن اذا وازنا بين قـــول أبى بكر فى أول خطبة له وهو خليفة : « انى وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على حق فأعينونى وان رأيتمونى على باطل فسددونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لى عليكم » . وقول أبى جعفر المنصور .. « قد أصبحنا لكم قادة .. نحكمكم بحق الله الذى أعطانا وسلطانه الذى أولانا .. » نجد فرقا ملحوظا فى الموقفين ، كذلك استفادت نظام ولاية العهد والمبايعة لأبنـــاء الخلفاء ، فوراثة الحكم ليست نظاما اسلاميا وانما يولى الأصلح والأكفأ .

---

(١) راجع الرسالة فى أمراء البيان للمرحوم محمد كرد على ، وانظر ما كتب د. طه حسين عنها فى كتاب « من حديث الشعر والنثر » .

التنظيم المالى فى الاسلام

اعتمد « كتاب .. تاريخ البشرية » فى حديثهم عن التنظيم المالى فى الاسلام على ماكتبه ماكس . ف . . بريشم Max Van Berchem (١) فى هذا الموضوع ، وحديثه مجحف يجافى الحقائق التاريخية ، فقد انتهى فيه الى أن هذا النظام قد اضطر الكثيرين أن يدخلوا فى الاسلام تخلصا من الضرائب الثقيلة التى فرضت عليهم وأعفى منها المسلمون ، وأيضا لتكون لهم المكانة الاجتماعية التى يتمتع بها المسلمون دونهم ، ولم يخل كلامه من تضارب واضطراب ، ولا يعنينا أن نقف طويلا عند كلامه لتفنيده ، ولكنا نعرض بايجاز نظام المالية فى الاسلام ثم ننظر فيما كتب على ضوء الأسس التى نوردها .

كانت ميزانية الدولة فى بداية أمرها تتكون من ضريبة الزكاة ، وهى ضريبة تختلف باختلاف ما تخرج منه ، فهى فى النقدين ـ الذهب والفضة ـ ٢ ١/٢ ٪ بعد أن يحول الحول على النصاب الذى تخرج منه ، وفى الزرع والثمار تخرج يوم جنيها ولكن لا زكاة فيما يقل عن خمسين كيلة ، أى ما يزيد قليلا عن أربعة أرادب ، وتختلف قيمة القدر الذى يخرج باختلاف ما تروى به الأرض ، فهى نصف العشر اذا رويت الأرض بالآلة ، والعشر كاملا اذا كانت تروى بالسيح والمطر ، وتختلف كذلك فى الماشية بحسب نوعها وعددها . وقد فرضت الزكاة فى السنة الثانية من الهجرة ، وفى السنة نفسها جد مورد آخر وهو غنائم الحرب التى أفاءها الله على المسلمين فى غزوة بدر ، وقد بين القرآن الكريم مصرف كل من النوعين ، أما الغنائم فقد نزلت فيها سورة الأنفال وجاء فيها :

---

(١) مستشرق سويسرى تنسب اليه مؤسسة كبيرة وهو منشىء « علم الكتابات العربية » . توفى سنة ١٩٢١ .

« واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » (١) .

وبهذا كان الخمس من هذه الغنائم لبيت المال والأربعة الأخماس الأخرى للمحاربين .

وأما الزكاة فقد جاء توضيحها فى سورة التوبة فى الآية الكريمة **« انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل .. » (٢)**

والمؤلفة قلوبهم هم ضعاف الايمان الذين يؤثرون المادة على الروح وعلى الفكر والتأمل ، رأى الاسلام أن يستميلهم بما تهوى اليه نفوسهم حتى اذا انجذبوا الى البيئة الاسلامية الخالصة قويت معنوياتهم وارتفعوا عن مستوى الماديات . وقد قطع الخليفة عمر ابن الخطاب نصيب هؤلاء ، وقال ان الاسلام قد أصبح قويا فلا حاجة به الى نصرة هؤلاء .

وحين اتسعت الفتوح ودخل فى الدولة الاسلامية من ليسوا مسلمين وهم أهل الكتاب ــ من المسيحيين واليهود ــ لم يرغمهم الحاكم الاسلامى على الدخول فى الاسلام ولكن ضربت عليهم الجزية وسموا « الذميين ، أو أهل الذمة » لأن المسلمين تعاقدوا معهم بعهد على الا يحاربوهم ولا يدلوا على عوراتهم ، والمسلمون بدورهم يحمونهم من أى عدوان عليهم ، وكانوا يتمتعون بحقوق المواطن المسلم وان كان المسلمون فيما بينهم يعتبرونهم طبقة أقل ، وكان هؤلاء يؤدون ضريبة على الرأس ، ويتصل بهؤلاء المعاهدون ، وهم الذين لم يفتح المسلمون بلادهم ولكن عقدوا معهم معاهدة تحالف وبمقتضاها يدفعون الجزية وهى المال الذى اتفقوا عليه .

---

(١) الآية ٤١ .

(٢) الآية ٦٠ .

وقد اوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسن معـــاملة المعاهدين والذميين وقال : « لهم ما لنـــا وعليهم ما علينـــا » ، وقال : « من عادى معاهدا أو ذميا فقد آذنته بالحرب » ، وبهذا كانوا يتمتعون بحـرية كافيـــة وســلام ولا يضيرهم أن يعتبرهم المسلمون طبقة أقل أو أكثر .

وجاء فى كتاب « تاريخ البشرية » : « ولم يضطهـد المسلمون اتباع هذه الديانات ، فقد أباحوا الحرية الدينيـة للكافة ، ولكن الاسلام كان يفرض على الوثنيين » (١) .

ويقول الدكتور فيليب حتى : « وكان أهل الذمة .. يتمتعون فى نظير دفع الجزية والخراج بحظ كبير من التســـامح الدينى ، وكانوا يخضـــعون حتى فى الأمور المدنية والقانونية جميعـا الى رؤسائهم الدينيين » .. (٢)

وعامل المسلمون الصابئة هذه المعاملة ، ولم يعتبروهم وثنيين لأنهم ينتمون الى القديس يوحنا (٣) ، اى انهم فرع من المسيحية .

واذن فمالية الدولة الاسلامية تتكون من هذه المصادر ، وهى الزكاة والجزية والخراج وغنائم الحرب ، ويضاف اليها الصدقات وهى غير اجبارية ، وانما هى تبرع يجود به من يرغبون الزلفى الى الله تعالى بمعاونة الفقراء أو معاونة الحكومة الاسلامية .

ولم تكن الجزية التى تضرب على الذميين مرهقة ، فقد روعى فيها حال الشخص الذى يدفعها ، فأعفى منها النساء والأطفـال والصبيان والشيوخ المسنون ، وكل عاجز عن العمل ، وليس هذا

---

(١) جـ ٣ ص ٥٤٣ .

(٢) History of Arabs P 233

(٣) المصدر السابق ـ وانظر فصلا عن الصائبة فى كتاب « أبو الانبياء ابراهيم للاستاذ العقاد ، والملل للشهرستانى ـ وانظر كتاب الخراج لابى يوسف .

فقط ، بل فرض لهــؤلاء الضعاف ــ ان كانوا في عوز مالى ــ ما تقوم به حياتهم من بيت المـال .

وفي مصر فرض عمرو بن العاص على كل شـــخص دينارين اثنين على كل بالغ من الرجال ، وأعفى منها من ذكرنا ممن يستحقون الاعفاء وذكر البلاذرى أن هذه الجزية اثنى عشر ألفا ، وهنـــاك رواية ثالثة تقول انها بلغت أربعة عشر ألفا (١) ، وقد حاول الدكتور هيكل ان يوفق بين هذه الروايات فرأى أن الأولى تتحـــدث عن الجزية فقط ، أما الثانية فانها تتحدث عن الجزية والخراج ، ولم يورد الرواية الثالثة .

وهناك ما يبدو مخالفا لهذا كله بعض المخالفة أو ما يحتـاج الى شيء من التوفيق ، وهو أن سكان مصر الذين تجب عليهم الجزية كانوا ثمانية ملايين ، وهذا يعنى أنهم كانوا يدفعون ســـتة عشر مليون ، ولكن مبلغ الدينارين كان هو المقياس العام والأصلى فى الفرض ، بينما كان هناك من يدفع دينارا واحـــدا ومن لا يدفع شيئا ، لهذا نقصت عن هذا القدر .

وهنـــاك رواية أخرى تتعارض أيضـــا مع ما سبق وهى أن الخليفة كتب الى عمرو أن يفرق بين أهل مصر فى مقـدار الجزية على حسب مقدرتهم وطاقاتهم المادية ، فكان الموسر يدفع أربعـة دنانير والمتوسط يدفع دينارين ومن دونه يدفع دينارا واحـدا ، ومن لم يستطعه أعفى ، ولعله لذلك اختلفت قليلا بين عام وآخر .

وكان عمر قد فرض من قبل على أهل السواد من العـــراق أربعة وعشرين درهما وثمانية وأربعين درهما (٢) ، أى أن الشخص كان يدفع درهمين أثنين أو درهما واحدا فى كل سنة .

---

(١) هناك رواية اخرى ذكرها البلاذرى هى ان عمرا دفع فى السـنة الاولى الفى الف فقط .

(٢) انظر الخراج لابى يوسف ص ٣٨ تحقيق قصى الخطيب .

اليست ضريبة هينة مهما كانت ظروف الناس ؟.

هذه هى الجزية التى تدفع للحاكم ويعفى أصحابها من الجهاد ويتكفل الحاكم الاسلامى بحمايتهم ويضمن لهم حقوقا كحقوق المواطن المسلم .

اما الخراج فكان يقدر على ما تنتج الأرض ، وقد مسح عمر سواد العراق فبلغ ستة وثلاثين الف ألف جريب ، فوضع على جريب الزرع درهما وقفيزا ، وعلى الكرم عشرة دراهم ، وعلى الرطبة خمسة دراهم (١) .

وفى كلا البلدين – مصر والعراق – كان الخراج يتناقص بسبب اقبال الناس على الاسلام ، فخراج مصر الذى رأينا فى عهد عمر صار فى عهد معاوية خمسة ملايين من الدنانير ، وفى عهد الرشيد أربعة ، أما العراق فكان خراجها مائة مليون فى عهد عمر – فى أقصى ما تقص الروايات ، ثم كان فى عهد عبد الملك بن مروان أربعين مليونا .

وقد بقيت لدينا روايات عما كان يجبى من مصر قبل الفتح الاسلامى فيقال ان الروم كانوا يجبون منها عشرين ألف ألف دينار وأن الفراعنة كانوا يجبون تسعين ألف ألف (٢) ، فانظر مدى ماحط عمرو عن المصريين : أفيقال بعد هذا أن الضريبة الباهظة أكرهتهم على الاسلام ؟.

وقد تعرض لهذا الأمر كل من بتلر وآرنولد ، فذكر هذا أن قبط مصر القوا بأنفسهم فى أحضان الاسلام ، وظل اقبالهم عليه يتزايد عاما بعد عام ، ولم يكن ثمة اكراه على قبول الدين الجديد، لكن قبط مصر كانوا قد سئموا ذلك الجدل العقيم حول طبيعة

---

(١) نفسه .
(٢) الفاروق عمر جـ ١٩٥/٢ .

المسيح ، وقد ثقل على أذهانهم أن تهضم نظريات تثقل عليهم في كلا الطرفين من المونوفستبين القائلين بالطبيعة الواحدة في ذات المسيح ، أو الملكانيين القائلين باجتماع اللاهوتية والناسوتية فيه (١) بينما جاءهم الاسلام بديانة بسيطة واضحة لا تعقيد فيها.

وأورد بتلر علة أخرى ليست بعيدة عما ذكرنا ، نفى أن يكونوا أقبلوا على الاسلام هربا من الجزية أو رغبة في مكانة اجتماعية أرقى ، فالدين لا يوزن بهذه الماديات الا عند ضعاف الايمان ، « أما الحقيقة المرة فهى أن كثيرين من أهل الرأى قد كرهوا المسيحية لما كان من عصيان لصاحبها ، اذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في الله ، نسيت ذلك في ثوراتها وحروبها التى كانت تنشب بين شيعها وأحزابها .. » (٢) .

فالمسيحيون الملكانيون حاربوا المونوفستيين ، وهؤلاء أيضا حاربوهم ، وكل كفر الآخر ، وكل هذا زعزع عقيدة الناس في المسيحية عامة ، وجعلهم ينفرون منها ، « فلجأوا الى الاسلام فاعتصموا بأمنه ، واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته » (٣) .

وقد ذكرنا من قبل أن الخليفة عمر قبل من الصائبة أن يعاملوا معاملة الكتابيين ، كما عامل عبد الملك قبيلة بنى تغلب النصرانية معاملة المسلمين ولم يستطع أحد من المؤرخين أن يغضى عما أبداه العرب من التسامح ازاء الأمم التى فتحها الجيش الاسلامى ، لقد ولوهم الوظائف والوظائف الكبرى في الدولة ، واتخذوا منهم أطباءهم ، وأصهروا الى الكتابيين يهودا ومسيحيين ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك ، اذ تزوج ريحانة وصفية .

---

(١) ويذكر أرنولد راهبا من قرية أطفيح كان يلبس زى الرهبان ويخالطهم ولكنه يصر على أن المسيح لم يكن الا انسانا ، وقد تبعه كثيرون ـ انظر الدعوة الى الاسلام ص ١٢٦ .

(٢) عن الفاروق عمر جـ ١٧٢/٢ ، وهو نقل من ترجمة أبى حديد ص ٣٨٥ .

كان طبيب معاوية هو ابن أثال المسيحى ، ويقال انه نصبه مديرا ماليا لمقاطعة حمص (١) ، وكانت زوجه ميسون أم يزيد من بنى كلب ، المسيحيين وكان يوحنا بن سرجون نديم يزيد فى شبابه.

وكانت نائلة بنت القرافصة زوج الخليفة عثمان مسيحية أيضا عن المذهب اليعقوبى ومن بنى كلب ، ثم أسلمت قبل زواجها وكانت مثلا حسنا فى الوفاء وحسن التصرف .

وظل المشرفون على ديوان الخراج ومالية الدولة من البلاد المفتوحة فى وظائفهم وظلوا يستعملون لغاتهم ، وكان عبد الملك بن مروان أول من شرع فى تعريب الدواوين وتلاه ابنه الوليد الذى أتم هذا التعريب فتناقص بذلك عدد الموظفين غير المسلمين ولكنهم لم يفصلوا من وظائفهم .

ومثل آخر يدل على مدى التسامح ، وعلى ان الذين تحولوا الى الاسلام لم يتحولوا عن اكراه ، ذلك أن الحجاج الثقفى والى العراق فرض على الذين دخلوا الاسلام فى عهده أن يدفعوا ما كانوا يدفعونه قبل اسلامهم ، وكان ذلك يعادل الجزية والخراج معا (٢) ومع ذلك ظلوا على اسلامهم وظل عدد المسلمين يتزايد .

وقد أراد والى مصر أن يفعل ذلك أيضا غير ان الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز كتب له « ان الله بعث محمدا (ص) هاديا ولم يبعثه جابيا » كما بعث بمثل هذا لوالى العراق .

واذن فالجزية لم تكن فادحة تكره على قبول الاسلام ، ولم يمنع فرضها توالى زيادة المسلمين .

اما الخراج فهو ضريبة ما تخرجه الأرض من العشور وانصاف العشور وهذا يستوى فيه المسلمون وغير المسلمين .

---

(١) حتى ١/٢٤٤ .

(٢) نفسه ٢٧٢ .

ولم يكن المسلمون الفاتحون يمتلكون الأراضى الزراعيـــة فى البلاد التى يفتحونها ، بل يتركون الأرض لزراعهـــا ، وكان هذا قبل كل شيء رفقا بهؤلاء الملاك ، فلا يضارون فى أسـباب رزقهم ، ومنعا لشغل العرب بالزراعة عن الجندية ، وقد حدث هذا أول ما حدث فى عهد عمر لأنه الذى انفسحت فى عهده الدولة وامتـد سلطانها على أراض زراعية ، وكان يعارضه فى هـذا جماعة منهم الزبير بن العوام ، وبلال بن رباح ، وكان أشد النـاس معارضة له ، لكن حكيم بن حزام أيده فى رأيه ، وقال له ان هؤلاء اعتادوا التجارة ولو شغلوا بالزراعة ضاعت التجارة منهم .

لكن حكام المسلمين وقد تركوا الأرض لزراعها فى مصر والشام والعراق عمـلوا على تنشيط الزراعة ، فشقوا الترع والقنـوات للرى وأقاموا الجسور وعملوا على احياء الأرض الموات ، كل ذلك وهى فى أيدى أصحابها .

وقد وضح أبو يوسف فرق ما بين ارض العشور وأرض الخراج فذكر أن الأرض التى يسلم أهلها وهى فى أيديهم هى أرض عشور ، لأن رسول الله (ص) فعل ذلك مع أهل المدينة وأهل اليمن ، وان الامام اذا ظهر على أرض وتركها لأهلهـا فهى أرض خراج أما اذا قسمها بين الفاتحين فهى أرض عشور ، وذكر فى هـذا ما فعله عمر فى أرض العراق اذ تركها لأصحابها فكانت أرض خراج (١) .

وكانت هذه الأموال توزع على المسلمين فى أى مكان ، وترسل للضعاف منهم ، وكان عمر يقول : .. ليأتين الراعى نصيبه من هذا المال وهو باليمن ودمه فى وجهه (٢) كما كان يقول : والله الذى لا اله

---

(١) كتاب الخراج ٧٥ .

(٢) نفسه ص ٥٠ ـ وعمر يريد انه سيأتيه ما يكفيه دون أن يتكلف الســؤال وطلب المعـونة .

الاهو ما أحد الا وله فى هذا المال حق .. وما أحـد أحق به من أحد .. وما انا فيه الا كأحدكم .. (٢) .

ومن هذا المال الذى لا مشقة فيـه ولا اكراه أيسر المسلمون وانعدم الفقر فيما بينهم ، حتى أن الولاة كانوا يسألون عن الفقير المستحق او طالب العون فلا يجدون .

ليست هـذه اشـتراكية ولا شـيوعية ولا رأسـمالية ولا استبدادية ، وانما هو نظام اسلامى ثبت صلاحـه واستقامت عليه حال الأمة زمنا طويلا ولم تفسد الا بعد أن تركته .

وجـاء فى كتـاب « تاريخ البشرية .. » أن العـرب حاكوا اسلافهم الساسانين واقتبسوا منهم طريقـة معاملة أهل الذمة ، وان اليهـود ومختلف الفرق المسيحية ظفروا بتسامح حقيقى ، حتى الزرادشتين ـ وكانت لهم جاليات كثيرة فى العراق ـ ظفروا أيضا بتسامح مماثل .

والواقع أن معاملة المسلمين كانت مبنية على اجتهـاد ، فقد نظروا الى ما عمل رسـول الله (ص) مع أهل المدينـة واليمن ونجران وخيبر ، ثم استنتجوا منـه ما ينبغى أن يعملوا ، ثم أن تصرف عمر مع أهل العراق كان عقب فتحهـا مباشرة وقبل أن يندمج بالأهليين ويعرفوا منهم نظام الساسانيين .

أما ما ذكره من التسامح مع كل الطوائف التى ذكرها ، فتلك سجية الاسلام ، والحمد لله أن يعترف بها كاتب أجهد نفسه فى تلمس الثغرات فى بناء النظام الاسلامى .

واخيرا يذكر الكاتب فى شىء من الدهشة تحريم الربا تحريما قاطعـا وتحريم اى فائدة تؤخـذ عن القرض المالى ومع هذا لم تحاول الهيئات المسئولة أن نجد تحليـلا أو محاولة للتخلص من

---

(٣) نفســه .

هذا القــانون وعزا ذلك الى صراحة الآية ((**يأيهـــا الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة**)) (١) .

ونحن نضيف الى ذلك هذه الآيات :

((**الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطـــه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا**)) .

((**يمحق الله الربا ويربى الصـــدقات والله لا يحب كل كفــار أثيم**)) .

((**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورســوله وان تبتم فلكم رءوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون ، وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون**)) (٢) .

((**وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله**)) ((**وما آتيتـــم من زكـــاة تريدون وجـــه الله فأولئـــك هم المضعفون**)) (٣) .

ونفخر بأن الاســلام هكذا دين تعــاون واخاء ، وليس دين استغلال ، فهو يدعو لمعاونة الفقراء وينهى عن اســتغلال عوزهم ، فالانسان يمتاز بانسانية وليس :

... كذئب السوء لمــا رأى دمـــا
يصاحبـــه يوما أحال على الـــدم

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٠ .

(٢) سورة البقرة الآيات ٢٧٥ ــ ٢٧٨ : والمعنى يقومون من قبورهم يوم القيامة على هذه الصورة .

(٣) سورة الروم الآية : ٣٩ .

هذا من الناحية التشريعية ، أما من الناحية العمليـــة فقد رأينا الربا هدم كثيرا من البيوت ، بل وهدم الأمم أيضـــا ، وكان وسيلة من وسائل المستعمرين في العصر الحديث ، وهو الذى أذل مصر مرتين ، وســـمح للأجانب أن يضعوا أيديهم فى ســـياستها وشئونها الداخلية والخارجية جميعا ، وهو أيضا وسيلة استغلها اليهود لجمع المال وتحطيم الآخرين ، ونحن لا نستسيغه ولا نبحث عن وسيلة نستحله بها .

والحمد لله الذى نهانا عنه وجعله بيننا محرما .

أمثلة من التحامل

تناثرت كتاب « تاريخ البشرية » تهم هنا وهنــاك ، بعضهــا مر عابرا كأنه شيء معروف ومسلم به ، وبعضها استنتجه الكاتب استنتاجا ، وبعضها منشؤه سوء فهمــه للموضوع الذى يتعرض له ومنهــا :

١ ــ القرآن والسنة اكسبا الشريعة جمودا .

فى ختام الحديث عن المذاهب الفقهية ، ذكر الكاتب ان الراى والاجماع تضاءل أثرهما بعد القرن الحادى عشر الميلادى ، واحتفظ القرآن والسنة بأهميتهما التشريعية ، وهــــذا ما وسم التشريع الاسلامى بالجمود وعدم قابليته للتطور والتغيير .

وملاحظة الكاتب هذه ترجع الى ما رسخ فى ذهنه من ان الشريعة الاسلامية مزيج من شرائع شتى ، وان الاسلام نفسه ملفق من عدد من الديانات . لهذا كان يريد للشريعة الاسلامية الا تظل مقيدة بالقرآن والسنة .

ولو أن الشريعة الاسلامية تخلت من أى منهما ما كانت اسلامية، ثم ان القرآن والسنة وضحا أسس القوانين ووضعا مبادىء القانون الذى وصفه هو بأنه شامل دقيق ، وفى اطار المبادىء التى رسماها يمكن أن يتطور القــانون ويختلف من مكان الى آخر ، وقد تطور فعلا قبل هذا التاريخ وبعده ، وكان فى كل اقليم ملائما لبيئته ، وفى كل زمن مرآة لحضارته ، لأن القرآن والسنة وضعا الأسس الأولى والاطار العام ، وبقى لكل مجتهـــد نظره ، ولهذا تعددت المذاهب الفقهية واختلفت وجهات نظر الفقهاء ، أما أن يتطور القانون فيبيح شيئا حرمه الله كأن يحل التعامل بالربا باسم التطور ومجاراة الأحداث ، فهذا لا يعد مرونة بل يعد خرجا عن الاسلام .

٢ ــ الحاكم مستبد مطلق :

قال ان سلطة الخليفة كانت مطلقة فى كل مكان ، ولم يكن هناك

نظام يتدخل بين الحاكم ورعاياه لتقييد سلطته .. وكان ذلك بعد أن تفككت الخلافة .

والواقع كما ذكر هو أيضا أن الخلافة تحولت ملكا منذ بايع معاوية بها ابنه يزيد ، ثم درج الخلفاء على ولاية العهد لأولادهم فى العهد العباسى أيضا . وهو نظام استفادوه من الفرس ولا ريب ولكن مع كل هذا لم يكن الحاكم الاسلامى مطلق اليد لا فى العاصمة ولا فى الأقاليم ، وانما كان هذا بعد أن استبد الأتراك بالحكم ، وقد أخذ هذا الاستبداد منهم يتجلى رويدا رويدا حتى استبدوا استبدادا مطلقا ، ولكن لا هم كانوا يمثلون الاسلام ولا طريقتهم اسلامية ؟

ويحدثنا ابن الأثير ان هؤلاء عبثوا بالناس فى عهد المتوكل فبينما هو يمشى بالمدينة قام له بعض الناس فقال له أحبس جندك والا حاربتك ، قال الخليفة فبم تحاربنى ، قال أحاربك بجنود الليل الذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ، فاستمع له المتوكل ثم بنى لهم « سامرا » ونقلهم اليها ، والأتراك بدأوا يتدخلون منذ عهد المعتصم العباسى .

وفيما قبل ذلك كان الرعايا يستطيعون تبليغ شكاواهم للخليفة، وكان القضاة ــ وليس الخلفاء ــ هم الذين يقومون بالفصل بين الناس وقانونهم هو الشريعة الاسلامية بقطع النظر عن اختلاف المذاهب .

وقد أفرد صاحب العقد الفريد كتابا للمواعظ والزهد وهو ملىء بما وعظ به العباد رجال الحكم من الخلفاء وغيرهم (١) .

ويكفى أن نثبت صلاحية الحكم الاسلامى بما ثبت من تقدم الشعب ورفاهيته فى عهد الخلفاء الراشدين ، فالفساد الذى طرأ فى عهد متأخر لا يرجع الى قانون الاسلام وانما يرجع الى التخلى عن قانون الاسلام .

---

(١) انظر كتاب الزمردة

المعتزلة وبشرية القــرآن

يبدو أن الكاتب لم يفهم المشكلة التى ثارت فى عهد المعتصم وابنه الواثق وعذب فيها ابن حنبل وغيره ، بسبب الافتاء بأن القرآن مخلوق أو غير مخلوق ، فقد ظن ان الذين قالوا انه مخلوقـ وهم رجال المعتزلة ، يقولون انه من كلام البشر ، وليس الأمر كذلك، فالمناظرة كانت تدور حول قدمه باعتباره صفة الله ، أو كونه محدثا باعتباره شيئا خلقه الله ، وليست كما فهم انهم قالوا ببشريته ، ونحن الآدميين محدثون والوجود كله محدث ولكنه أيضا من خلق الله سبحانه وتعالى . ، ولم يقل أحد من المسلمين أبدا ان القرآن من كلام البشر .

والمسألة كلها قامت على المبالغة فى تنزيه الله تعــالى وافراده وحده بالقدم ، وكما أن الناس والعالم كله من خلقة (سبحانه) ولا خالق غيره ، فالقرآن أيضا من خلقه ولا منشىء له غيره .

ومن المعروف ان الفكرة وجــدت عنــد غير المســلمين قبل الاسلام ، ونادى بها أفراد فى العصر الأموى وعوقبوا وكان المأمون العباسى أول خليفة دعا اليها ، وحرضه عليها جماعة من علمــاء المعتزلة على رأسهم أحمد بن أبى دواد ولم يكن أى منهم غافلا عن اعجاز القرآن وادراك انه كلام فريد لا يتــأتى للبشر أن يؤلفوا مثــله .

فلا مجال لهذا الفهم الذى فهمه الكاتب .

الحسبة فى الاسـلام

يراد بالحسبة اوجه الاصلاح العملى فى حياة الناس ، أو هى نوع من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكن بطريقة عملية ، وقـد بدأت بداية مبكرة بأعمـال يقوم بها ذوو العلم والتقوى احتسابا على الله وطلبا للاجر منه وحده ، والحسبة مشتقة من هذا ، اذ يقال : فعلت هذا الأمر حسبة واحتسابا .

وبتقدم الحيـاة وتطورها أصبح فى الدولة موظفـين يقـومون بالحسبة ، وعملهم ارشـاد الناس ونهيهم عما لا يجوز ، ولكنهم لا يملكون عقوبتهم بل يرفعونهم الى القضاء اذا لم يستجيبوا .

وكان ولاة الحسـبة مثـلا يمرون بالأسـواق فيمنعون غش البضـائع وينظرون فى الأسعار والموازين ، كمـا كانوا يقومون بالاصلاح بين المتخاصمين ، ويأمرون بالرفق بالحيوان والأطفال والشيوخ ورعاية المرضى وهكذا .

ويرى كتاب « تاريخ البشرية » أنها نظام نقل عن الساسانية ، وربما صح هذا فى تعيين موظف مختص بهذا العمل ، ولكن لا نجد دليلا كافيا فى ذلك .

واذا رجعنا الى جذورها فى الاسلام نجد انها فرع أو نوع من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى قرر فى القرآن الكريم . ونجد فى عمل الرسول صلى الله عليه وسلم واقواله ما يدخل فى هذا ، وقد مر (صلى الله عليه وسلم) برجل يبيع قمحا فضرب يده فى داخله فوجد به بللا ، فنهى الرجل عن اخفاء القمح المبلل وامره باظهاره حتى يكون المشترى على علم بما يشتريه .

وكان عمر يجول فى المدينة ليلا ليسمع مقالة النـاس فيه أو شكواهم منه ، أو ما عساه يكون فى أعمالهم من خطأ أو سـلوكهم من انحراف ، فاذا رأى من أعمالهم شـيئا غير جائز شرعا نهاهم عنه ووجههم الى العمل الصواب .

ونجد ذلك فى أعمال الخلفاء حتى الأمويين فكان هشام بن عبد الملك يمر بالأسواق بنفسه ويراقب هذه الأشياء حتى حزم البقل كان يأمر الباعة بزيادتها أحيانا .

ولسنا بصـدد الحديث عن الحسـبة ولكننا لا نرى مجاراة الباحثين انها نظام مستعار أساسا ، بل هو منبثق عن الاسلام (١).

---

(١) أنظر بحثا للاستاذ موسى الحسينى من بحوث المؤتمر الاول لمجمع البحوث الاسلامية ـ وهو من البحوث الجيدة المستوفاة ـ وهو يقرر أيضا أن الحسبة نظام اسلامى بحت .

آثار هذه الحكومة

تقاس القوانين ونظم الحكم عادة بنتائجها ، فلنغض عما يصف هؤلاء به الاسلام ، فليكن نظاما مقتبسا أو غير مقتبس أو مجحفا بالشعوب التى حكمها ماذا كانت نتيجته بعد كل هذا الذى يقولون ؟

مرة اخرى ادع الدكتور فيليب حتى ـ وقد وصف محمدا (صلى الله عليه وسلم) فى غير موضع وغير كتاب بما لا يقبله المسلمون ـ يتحدث عن هذا النظام ، قال :

« .. لم تكد تمر مائة سنة بعد وفاة مؤسس الاسلام ، حتى صار اتباعه سادة لامبراطورية أعظم من امبراطورية روما فى ابان مجدها ، امبراطورية امتدت من خليج بسكاى الى نهر السند ومن تخوم الصين وبحر آرال الى الجنادل العليا فى النيل ، وكان اسم هذا النبى العربى مقترنا بلفظ الجلالة تردده الالسن خمس مرات فى اليوم من آلاف المآذن المتناثرة فوق جنوب أوروبا الغربى وشمال افريقية وغرب آسيا ووسطها »

ثم أفاض هذا المؤرخ الكبير فى وصف دمشق فى العهدالاموى اذ كانت عاصمة هذا الملك الشاسع ، « وكان قصر الأمويين يتلألأ فى جوفها كاللؤلؤة وسط الحدائق الزمردية التى تحيط به .. » .

هذا الوصف الضافى فى بما فيه من عبارات شعرية يتناول جانبا خاصا من الحياة الاجتماعية وهو مظهرها المادى ، وبقى أن نذكر بعد هذا أن الشعوب التى كانت فى ظل هذه الحكومة

الاسلامية كانت أسعد شعوب عاشت فى مثل هذه الدولة الواسعة لما كانت تتمتع به من حرية ومساواة .

وقد ذكر كاتب « تاريخ البشرية » في حديثه عن هذه الدولة الواسعة ان الامبراطورية الرومانية كانت تحوى أيضا أجناسا عديدة تنطوى كلها تحت سلطان واحد . وكان ينبغى أن يذكر أنه كانت هناك فوارق واسعة بين سكان الامبراطورية الرومانية ، وان الحاكم فى روما أو بيزنطة كان يغرق فى ترف لأحد لوصفه بينما كانت الشعوب المغلوبة تعانى سوء الهوان .

لننظر مثلا الى مصر فى العهد الرومانى وفى العهد الاسلامى

لقد رذحت تحت نير هذا الحكم فترة تزيد على ستة قرون لم تكن خلالها الا مزرعة للقمح الذى تعيش عليه روما ، وكان الجيش الرومانى هو الذى يحميها ، أما القبط فكانوا قبل كل شيء زراعا للرومان ، ولم يستمتعوا يوما بحرية العقيدة

حارب أحد عشر امبراطورا عبادة ايزيس .

فلما جاءت المسيحية حاربوها حربا يعرف عصره بعصر الشهداء لكثرة الضحايا البشرية التى قدمت وقودا للنار .

وحين اعتنقت الدولة ديانة المسيح لفكرة سياسية اتضحت فى ذهن الامبراطور قسطنطين أجبر المصريون على التحول الى المذهب الملكانى ، فلم تحترم حريتهم الدينية ولا دماؤهم وأرواحهم فى أى من العهدين .

واذن فلا ثقافة ولا حرية ولا رحمة فى التعذيب .

أما الفاتح المسلم وهو عمرو بن العاص فهذه فقر من عهده الذى قدمه تلقائيا للقبط :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وبرهم وبحرهم . لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقض .

من دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا .

على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين (١) .

ولم يكن مجرد وعد ، ولا عملا سياسيا لتأليف القلوب ، بل وفى عمرو بكل حرف فى عهده .

أليس القبط حينئذ على حق فى حب هذا الحاكم والتفانى فيه

وبقيت بمصر كنائس اليعاقيـــة وكنائس المدنوفستيين وظل القسس من كل كنيسة يدعون لمذاهبهم ولمن شاء من القبط ان تتخذ هذا المذهب أو ذاك .

كل هذا ومساجد المسلمين أيضا مفتحة ، ثم هى دور ثقافة ودرس ، وكان المار بمسجد عمرو يسمع للقراء دويا كدوى النحل

ولقد كان الخليفة مرة فى حاجـة الى المـال واستبطأ خراج مصر فبعث الى عمرو يستعجله فلم يبعث اليه شيئا واستمهله ، فكتب له ثانيا ، وهذه المكاتبات غاية فى الشدة من جانب الخليفة، وغاية فى التريث من جانب عمرو ، وأخيرا كتب عمرو يقول :

« .. أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى

---

(١) النجوم الزاهرة ١/٢٤ .

الخراج ، ويزعم أنى أعنــد عن الحق .. وانى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ، ولكن أهل الأرض استنظرونى الى أن تدرك غلتهم فنظرت، فكان الرفق بهم خيرا من أن يخرق بهم فيصروا الى بيــع ما لا غنى عنه .. »

فلم يسع الخليفة ازاء هذا العذر الا قبول رأيه .

وقد أصلح عمرو ومرافق الزراعة التى أهملهـــا الرومان ، وأعفى القرى التى فسدت مرافقها من الضرائب حتى يصلحها .

واذن فليس مساواة الدولة الاسلامية بالامبراطوريةالرومانية فى كثرة انواع الشعوب شيئا ذا بال ، وانما يجب النظر الى حال الشعوب وطرق معاملاتهم .

الرقيق فى الاسلام وبين الأوروبيين

لا يستحق الحديث عن الأرقاء أن يخصص له عنوان خاص ، أو أن يكتب عنه كلام كثير ، فكاتب « تاريخ البشرية » لم يتعرض للحديث عنهم طويلا ولكن ذكر أنهم كانوا الطبقة الدنيا فى الشعب ، وبجانب ذلك ذكر أن الذميين كانوا يلاقون هوانا ويجبرون على اتخاذ زى خاص ولا يسمح لهم بركوب الخيل .. ، ثم وازن بين الحكومة الاسلامية والحكومات التى يوجهها البرلمان مثل الحكومة الفرنسية .

أما الحديث عن نظام الرقيق فقد أفاض فيه الكثيرون ، وليس فيه ما يؤاخذ به الاسلام ، اذ هو كان نظاما شائعا فى أسرى الحرب وفى كل الدول والقبائل التي كانت موجودة فى ذلك الوقت ، ولكن الاسلام فى الواقع شرع تحرير الرقاب وحث عليه وجعله كفارة لكبائر الذنوب ثم وضع نظام المكاتبة والزواج الذى تصير به الأنثى أم ولد ، وهكذا أنشأ نوافذ للتحرير قد تكون واسعة أو غير واسعة .

أما معاملة الرقيق فقد حفلت الكتب الاسلامية بوجوب مراعاتها ، وكان الأرقاء يتمتعون بحرية وحسن معاملة لم يوجد مثلها قبل الاسلام .

واذ ذكر الكاتب هوان الذميين وعزا ما افترضه استبدادا لعدم وجود البرلمان الذى يرد الحكومات ، فلنذكر أن الذميين لبسوا زيا يميزهم فى عهد الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز ، وانهم الزموا بمظهر أقل من مظاهر المسلمين ، ذلك لأنهم على غير الاسلام وظهورهم بمظاهر الأبهة والتعالى قد يجذب اليهم من

يقلدونهم فى عاداتهم التى لا يرضاها الاسلام ، ولكن بجانب هـذا التمييز لم توجه لهم اهانات ولم يحرموا حقوقهم الانسانية .

ويذكرنا هذا بمدينة الاوروبيين المستعمرين فى العصرالحديث

لقد رأينا الحاكم الانجليزى فى السودان اذا أراد أن يركب جواده يتقدم أى شخص سودانى فينحنى أمامه ، ويضع الحاكم الانجليزى قدمه على ظهر السودانى ثم يمتطى جواده (١) — وهذا فى القرن العشرين .

ورأينا الحاكم الانجليزى يستدعى الرجل السودانى فيلهبه بالسوط حتى يدمى جسمه لأنه مر به راكبا ، ولم ينزل من فوق حماره حين رأى الحاكم (الأبيض) .

كل هذا وللانجليز وحدهم المكان الممتاز فى السكنى وصدر المكان فى المجلس والرواتب السخية الباهظة وهى من دم السودانى المسكين .

ولنرجع قليلا الى الوراء لنرى ما فعل الأوروبى الذىاستعمر امريكا بسكانها الأصليين وبالسكان الافريقيين على السواء .

أما الهنود الحمر فلم يكونوا يرمون بالرصاص فقط ، ولكن كانت النار توقد فى الغابة فتفلت الحيوانات الأوابد منها وتشوى لحوم الأدميين وتأكلها النار ، ثم تستصلح الأرض للزراعة .

وفى القرن السادس عشر والسابع عشر خصصت سفن كبيرة لعبر المحيط كى تجلب الزنوج الافريقيين لفلح الأرض فى امريكا ، واتبعت طريقة قريبة من الأولى ، كان هناك قناصون يهجمون على القبـائل والأسر فينهبون من ينهبون ويقتلون من يتعرض لمقـاومتهم .

---

(١) أسجل هذا الحدث وبيننا كثير من السودانيين رأوه بأعينهم ، وسوف يكون أمرا عجيبا فى نظر الجيل المقبل ولكن هذا هو الواقع .

كان الطفل ينتزع من أبويه وتؤخذ الفتاة من بين ذويها ، لأن المستعمر الأوروبى كان يؤثر الشباب لقدرتهم على العمل وقابليتهم للتطور ، وللحاجة لعدد وفير كانوا يحيطون مساكن القبيلة بدائرة من النار تجبرها على الفرار ، ثم يجبرها الحراس أن تتوجه الى السفينة ، وهناك يختار من يختار ويترك من يترك .

وأثناء الرحلة فى البحر كان الكثيرون يموتون وكانت أجسامهم تلقى فى الماء ، ومن العجيب أن طيور البحر ألفت هـــذه السفن فكانت تتبعها فى رحلاتها محققة ما تخيله النابغة الدنيا من قبل :

اذا ما غدوا بالجيش حلق فوقهم
عصـــائب طير تهتدى بعصـــائب

وحول ما عانى الملونون فى أمريكا من الهـــوان ألفت قصص ليست حوادثها المتخيلة بعيدة عن الواقع ، ومنهـــا قصة « كوخ العم توم » التى ترجمت للغات شتى .

ولمع اسم الرئيس ابراهام لنكولن كمحرر للعبيـــد ، ولــكن العبيد فى الواقع لم يتحرروا ، ولا تزال لهم الى اليوم فى أمريكا مشاكل لم تحل ، وما أحوج هؤلاء المساكين الى القانون الاسلامى

ولمن يشاء أن يوازن بين حياة هؤلاء الملونين حتى فى الوقت الحاضر وحياة الذميين التى ينتقدها كتاب « تاريخ البشرية » .

والحمد لله الذى هدانا للاسلام وصدق الله اذ يقـــول لنبيـــه « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

للمؤلف

القانون الاسلامى فى مواجهة التحديات
الشيوعية والشيوعيون فى ميزان الاسلام
معانى القرآن واعرابه للزجاج (تحقيق وشرح)
رسائل من السنة (تحقيق وشرح)
توضيح البلاغة
نقد مسرحية مجنون ليلى فى شعر احمد شوقى
ابن شـــــهيد
نداء الضمير (ترجمة)
الاستشراق والتبشير (تحت الطبع)

فهـرس

هذا الكتاب

●● تحتوى هذه الدراسة الهامة ردا على ماتضمنته الموسوعة الشاملة التى تصدرها هيئة اليونسكو عن تاريخ الجنس البشرى وتطوره الثقافى والعلمى ، وهى الموسوعة التى تضمنت فى الفصل العاشر من الجزء الثالث حديثا موجزا عن العرب والاسلام احتوى الكثير من الطعن فى الاسلام والافتراء عليه .

●● وقد أثارت هذه الدراسة حفيظة المسلمين على مؤسسة اليونسكو لما فيها من تهجم على الاسلام ومجافاة للحقائق التاريخية،

●● ومن هنا تتخذ دار الشعب هذه المبادرة بنشر الدراسة التى أعدها فضيلة الشيخ الدكتور عبد الجليل شلبى والتى خصص فصلا منها للرد على ((جولد زيهر)) نظرا لكثرة تداول كتبه ولتأثر كتاب اليونسكو بما ورد بها ، ونحن اذ نقدم هذه .. الدراسة الهامة لنرجو من هيئة اليونسكو أن تبادر بنشر وجهة النظر الاسلامية حفاظا على حيدتها ومكانتها العالمية .

الثمن ٣٥ قرشا

مطابع دار الشعب بالقاهرة